التعليقات الموضحات

لرسالة كشف الشبهات

للإمام المجدد

محمد بن عبد الوهاب

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

تأليف

أ.د. عارف بن مزيد السحيمي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

الحمد لله الذي خلق المكلَّفين ليعبدوه، ووضَّح لهم الأدلة والبراهين ليعرفوه، وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فبتيسير الله وتوفيقه نجتمع في هذه الليلة، ليلة الاثنين الثاني عشر من شهر صفر من عام خمسٍ وأربعين وأربعمائة وألف من هجرة نبينا صلى الله عليه وسلم في جامع التوبة بحي الدعيثة بالمدينة المنورة، لنتدارس في ما يعينُ على فهم رسالةٍ عظيمة النفع، من أجلِّ مؤلفات الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، ألا وهي رسالة: (كشف الشبهات).

وقبل الدخول في التعليق على هذه الرسالة فإنه من المناسب ذكر مقدمة تتعلق بعنوان الرسالة وشرح العنوان وموضوع الرسالة ومنهجه في تأليفها وأهميتها:

الأمر الأول: عنوان الرسالة وشرحه.

عنوان الرسالة: المشهور تسميتها بكشف الشبهات.

وقد سمَّاها بذلك الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب في كتاب تيسير العزيز الحميد في باب من الشرك أنْ يستغيث بغير الله.

وسمَّاها ابن بشر في تاريخه كشف الشبهات، في حوادث سنة ١٢٠٦هـ.

وسمَّاها الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بكشف الشبه، كما في مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، وقال: (إنَّ ابن منصور ردَّ مسائل في كشف الشبهة).

وقد طُبِعَتْ عدَّة مرات مفردة، وضمن مجموعات، ومنها كتاب: تَاريخ نجد لحسين بن غنام بتَحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد (ص: ٢٣٣- ص ٢٥٨)، طبع القاهرة سنة ١٣٨١هـ.

والكشف معناه في اللغة: رفع الشيء عما يواريه ويغطيه، فمعناه: الإيضاح.

وهذه الرسالة فيها إيضاح وإزالة وكشف وتفنيد للشبهات التي سيأتي ذكرها.

والشبهات في اللغة: جمع شبهة، والشبهةُ: الالتباس.

وسميت شبهة؛ لأنَّ الأمر غير المتميز يُسمَّى شبهة، لكونه يشبه الحق، وليس حقًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التدمرية : (الشُّبه التي يَضِلُّ بها بعضُ الناس وهي ما يشتبه فيها الحق والباطل حتى تشتبه على بعض الناس، ومن أوتي العلم بالفصل بين هذا وهذا لم يشتبه عليه الحق بالباطل).

وقال أيضًا: (لا يشتبه على الناس الباطل المحض بل لا بدَّ أن يُشاب بشيء من الحق).

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: (إنَّ الشبهة إذا كانت واضحة البطلان لا عذر لصاحبها فإنَّ الجدال معه في إبطالها تضييع للزمان وإتعاب للحيوان مع أن ذلك لا يردعه عن بدعته، وكان السلف لا يخوضون مع أهل الباطل في ردِّ باطلهم عنهم).

أما الشبهة المشكلة فيجب بيانها للناس لئلا يقعوا فيها دون علم ببطلانها.

الأمر الثاني: موضوع الرسالة ومنهجه في تأليفها.

أما موضوعها فقد قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله:

(هذا الكتاب جواب لشبه اعترض بها بعض المنتسبين للعلم في زمانه عليه؛ فإن الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب –رحمه الله– لما تصدى لبيان التوحيد والدعوة إليه وتفصيل أنواعه والموالاة والمعاداة فيه ومصادمة من ضاده وكشف شبه مَنْ شُبِّه عليه –وإن كانت أوهى من خيط العنكبوت وبين ما عليه الكثير من الشرك الأكبر– اعترض عليه بعض الجهلة المتعالمين أزَّهم إبليس فجمعوا شبها شبهوا بها على الناس، وزعموا أن الشيخ رحمه الله يكفر المسلمين وحاشاه ذلك؛ بل لا يكفر إلا من عمل مكفرًا وقامت عليه الحجة، فأجابهم المصنف بهذا الكتاب، وما يميز به المنصف ما عليه الشيخ وأتباعه وما عليه أولئك، وقدَّم مقدمة في بيان حقيقة دين المسلمين وما دعوا إليه، وحقيقة دين المشركين وما كانوا عليه، وبين أنَّ مشركي زمانه هم أتباع دين المشركين).

وأما منهجه في تأليفها فقد قال الشيخ عبدالمحسن بن حمد البدر

حفظه الله:

(اسم الكتاب مُطابقٌ لموضوعه، فالشيخ رحمه الله أورد فيه الشبهات التي ذكرها أهلُ البدع، ملبِّسين بها على الدعوة إلى الحقِّ والصراط المستقيم، ومخالفين فيها لِما كان عليه سلف هذه الأمَّة من الصحابة ومَن سار على نهجهم، وذلك بتعلُّقهم بالأولياء والصالحين، وجعلهم وسائط بينهم وبين الله، يَدعونهم ويَستغيثون بهم، فجمع الشيخ ـ رحمه الله ـ جُملاً كبيرة من هذه الشُّبَه، فيذكر الشبهة ثم يذكر الجواب عليها، مستدلاًّ على ذلك بنصوص الكتاب والسنَّة وما كان عليه سلف الأمَّة، وكتابه هذا متمِّمٌ لكتبه الأخرى في العقيدة، التي أوضح فيها ما يجب اعتقاده وفقاً لنصوص الكتاب والسنَّة، فإنَّه بهذا الكتاب أجاب على ما يُورَد على العقيدة الصحيحة من شبهات، مبيِّنًا بطلانها ومخالفتها للحقِّ والهدى الذي كان عليه سلف هذه الأمَّة).

الأمر الثالث: أهمية الرسالة.

تظهر أهميةُ معرفةِ تلكم الشبهات والجواب عنها من عدة أوجهٍ، منها:

١- خطورة الوقوع في أيِّ شبهة من الشبهات التي نبَّه عليها المؤلف رحمه الله.

فالوقوع فيها قادح في توحيد العبد فمنها ما هو مخرجٌ من ملَّة الإسلام، الذي يترتَّبُ على فعله: خروجُ المرء من الملة، وعدم مغفرة الله له إلا بالتوبة، وعدمُ قبول عمله، وخلوده في النار، وعدم جواز

مناكحته، وإذا ماتَ لا يُغَسَّلُ ولا يكفَّن ولا يصلَّى عليه، ولا يُدعى له، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ويكون حلالَ الدم والمال، والذي له حقُّ قتله هو السلطان الأعظم، فلا يجوز الافتيات عليه فيما هو من صلاحياته، وتحرُم ذكاته وذبيحته، ويسقط حقه في الحضانة، ولا تُقبَلُ شهادته أبدًا على المسلمين؛ لأنه ليس بعدلٍ.

٢- أنَّ العلم بمعرفة الشبهات المتعلقة بتوحيد العبادة والجواب عنها من أهم المهمات.

حتى يتبيَّن للمسلم الفارق بين الإسلام والكفر؛ ولئلا يقع العبدُ في شيء من هذه الشبه وهو لا يشعر، وليكون على بصيرة في دين الله تعالى، ولا يغترَّ بأهل الجهل ودعاة الباطل الذين أخرج بعضهم في زماننا للناس بعض هذه الشبه المخرجة من الإسلام في قالب التوحيد والسنة والتعظيم للصالحين.

فعلى المسلم أن يعرف التوحيد، وضدَّه، فإنَّ الضّدَّ يُظْهِر حسنَه الضّدُّ، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فمن عرف التوحيد ووقف على حقيقته، تبين له فسادُ ضدِّه، فيتمسك بالتوحيد أعظم التمسك.

وربُّنا جلَّ وعلا بيَّنَ ووضَّح طريق الهدى من الضلال، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه.

قال الله تعالى: (وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ) أي: سبيلهم الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإنَّ سبيل المجرمين إذا استبانت واتضحت، أمكن اجتنابها، والبعد منها، بخلاف ما لو

كانت مشتبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

وَقد كَانَ أَصْحَاب رَسُول الله ﷺ يسألونه عن الطاعة ليمتثلوها، وَكَان حذيفة رضي الله عنه يسأله عَن الْبَاطِل وَالشَّر والفتنة ووهن عرى الإسلام وفشو البدعة للتمكن من المجانبة، كما قال: (كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي) رواه البخاري ومسلم.

فمعرفةُ سبيل الباطل مهمة جدًا؛ لأنَّ من لم يعرف الشَّرَّ من الخير يُوشك أَن يَقع فِيهِ.

كَمَا قَالَ الشَّاعِر:

(عرفتُ الشَّرّ لَا للشر لَكِن لتوقيه ... وَمن لَا يعرف الشَّرَّ من النَّاس يَقع فِيهِ).

٣- هذه الشبهات وُجِدَ من يُروِّج لها ويقرِّرُها في بعض بلاد المسلمين.

فبعض دعاة الشرك والبدع يُسَمُّونَ تلك النواقض بأسماء محببة للنفوس، ترويجًا لها، وتضليلاً للناس، فأخرجوا للناس الشرك في العبادة والتعلق بالمقبورين في قالب التعظيم للأولياء، وسمَّوا دعاء الأموات توسُّلًا وتبركًا مشروعًا، وقرَّروا للجهلة أنَّ الشرك متعلق بالربوبية، فلا يكفر المرءُ إلا إذا اعتقد الخلقَ والإيجاد لغير الله تعالى.

وصور المخالفات في توحيد العبادة كثيرة جدًا، فمن المهم معرفةُ شبهات المنحرفين في هذا الباب؛ لأنها إذا استبانت واتضحت، أمكن اجتنابها، والبعد منها.

هذه ثلاثة أمور دالة على أهمية معرفة الشبهات المتعلقة بتوحيد العبادة والجواب عنها.

فعلى كلِّ مسلمٍ ناصحٍ لنفسه أنْ يعتني بدراسة عقيدة السلف الصالح، وأنْ يضبطها تمام الضبط، فالتمسك بالعقيدة السلفية، سببٌ في تعلُّق العبد بربه دون من سواه، وسبب لنجاة العبد وفلاحه في دينه ودنياه، وسبب للخلاص من التفرق والتحزب، وسبب لاجتماع كلمة المسلمين.

ونشرع مستعينين بالله تعالى في التعليق على هذه الرسالة المباركة، والله أسأل أن يرزقنا وإياكم والمسلمين البصيرة في الدين، وأن يعيذنا جميعًا من مضلَّات الفتن، وأسأله أن يحيينا على الإسلام والسنة، ويجعلنا ممن يتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحياة، ويحشرنا في زمرته بعد الممات إنه سميع مجيب.

قال المؤلف رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم

الشرح:

ابتدأ المؤلفُ رحمه اللهُ كتابه بالبسملةِ، لما لها من منزلة رفيعة في الشريعة الإسلامية، ومِنْ عادة العلماءِ رحمهم اللهُ بدءُ كتاباتهم بالبسملة لأمور، منها:

أولًا: الاقتداءُ بالكتاب العزيز فإنَّ أوَّله البسملة بالإجماع.

ثانيًا: الاقتداء بالنبي ﷺ في مراسلاته ومكاتباته للملوك وغيرهم فإنه كان يبدؤها بالبسملة كما جاء في كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام، وفيه: " بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم..." رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: " وقد جَمَعْتُ كتبَ النبي ﷺ إلى الملوك وغيرهم فلم يقع في واحدٍ منها البداءة بالحمد بل بالبسملة".

ثالثًا: استقرارُ أئمةِ الإسلام على افتتاح كتب العلم بها، واتفاقهم على ذلك.

قال القرطبي رحمه الله: " اتفقوا على كَتْبِ: " بسم الله الرحمن الرحيم" في أول الكتب والرسائل".

رابعًا: التبركُ بذكرِ اسم الله تعالى، فيحصل بالبدء بها البركة، والاستعانة بالله عزَّ وجلَّ على ما يُهتَمُّ به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله لَمَّا ذَكَرَ الخلاف في البسملة

هل هي من الفاتحة أم لا؟: " فلو قُدِّرَ أنهم – أي: الصحابة رضي الله عنهم- كتبوها على وجه التبرك لكان ينبغي أنْ تقرأ على وجه التبرك".

خامسًا: إظهارُ مخالفةِ المشركين الذين يبتدئون كتبهم بأسماء أعيادهم، أو دينهم، أو آلهتهم.

قال الجصَّاصُ الحنفي رحمه الله: " وفيه – أي: من الأحكام التي تتضمَّنُها البسملة: إظهارُ مخالفةِ المشركين الذين يفتتحون أمورهم بذكر الأصنام أو غيرها من المخلوقين الذين كانوا يعبدونهم".

قال المؤلف رحمه الله:

اعلم رحمك الله أنَّ التوحيد هو: إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة.

الشرح:

قوله: (**اعْلَمْ**) فعلُ أمرٍ مبنيٌّ على السكون، لا محلَّ له من الإعراب، وفاعله مستترٌ فيه وجوبًا، تقديره أنت.

وهذه الكلمة يُؤتَى بها عند ذكر الشيء الذي له أهميته الشرعية، لتنبيه وحثِّ السامع على الإصغاء لما سيذكرُ له، فهي أمرٌ بتحصيل العلم والتهيؤ لذلك.

ولا شكَّ أنَّ معرفة الشبهات المتعلقة بتوحيد العبادة من أهم المهمات التي يجب فهمها، والإصغاءُ لمعرفتها غاية الإصغاء، حتى لا يقع العبد في شيء منها بسبب جهله بها، فاختيار المؤلف رحمه الله لهذه الكلمة يعتبر من باب اختيار المقدمات المناسبة للكلام.

والمتأمل في النصوص الشرعية يجد أنَّ هذه الكلمة استُعْمِلَتْ في سياق تقرير الواجب من العلم، ومن ذلك:

قول الله تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)، وفي هذا تنبيه إلى أنَّ العلم بتوحيد الله فرضُ عين على كلِّ إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كلُّ أحدٍ مضطر إلى ذلك.

والأمر بتوحيد الله يتضمن الأمر بمعرفة ما يقدح في التوحيد؛ لأنَّ التوحيد لا يُسمَّى توحيدًا إلا بترك عبادة ما سوى الله، والإيمان بالله تعالى، كما قال الله عزَّ وجلَّ: (فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى)، وهي كلمة التوحيد.

وقوله: (**رحمك الله**) من التلطف بالسائل: الدعاء له بالرحمة، ومعنى: رحمك الله: أي: غفر الله لك ما مضى ووفقك وعصمك فيما يستقبل، وإذا قرنت الرحمة بالمغفرة فالمغفرة لما مضى، والرحمة: سؤال السلامة من ضرر الذنوب وشرها في المستقبل، ومَنْ رَحِمَهُ الله؛ فقد أفلح وسعِد، ونال خير الدنيا والآخرة.

وقوله: (**أنَّ التوحيد هو: إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة**).

ترجع كلمة التوحيد في لغة العرب إلى لفظة "وَحَدَ"، وفروع هذه الكلمة تدور على معنى: الانفراد وانقطاع المثل والنظير.

ففي معنى الانفراد قال ابن فارس رحمه الله: "الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل على الانفراد".

والتوحيد في الشرع له إطلاقان:

الإطلاق الأول: إطلاق عامٌّ وهو: إفراد الله تعالى بما يختص به من الأسماء، والصفات، والألوهية، والربوبية.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: " وسمي دين الإسلام توحيدًا؛ لأنَّ مبناه على أنَّ الله واحد في ملكه وأفعاله لا شريك له، وواحد في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحد في إلهيته وعبادته لا ند له".

وقال السعدي رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]: " أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك: في ذاته، ولا

سَمِيٌّ له، ولا كفءٌ ولا مثلٌ ولا نظيرٌ، ولا خالقُ ولا مدبرُ غيره؛ فإذا كان كذلك فهو المستحق؛ لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه".

الإطلاق الثاني: إطلاق خاصٌّ، وهو المعنيُّ هنا، ويراد به: إفراد الله تعالى بالعبادة.

والعبادة في اللغة: الانقياد والخضوع والتذلل، يقال: طريق معبَّد: إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام.

وشرعًا عرَّفها أهل العلم باعتبارين:

الأول: المفهوم العام، باعتبارها مصدرًا، وتعني: التعبُّد، وهو فعل العابد.

وعرَّفها الشيخ ابن عثيمين رحمه الله بقوله: " التذلل لله محبة وتعظيمًا بفعل أوامره واجتناب نواهيه، على الوجه الذي جاءت به شرائعه".

الثاني: المفهوم الخاص، باعتبارها اسماً، وتعني: المتعبَّد به.

وعرَّفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالته العبودية بقوله: " اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ".

وبالنظر في تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله للعبادة، وقوله فيه: "من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة "، **فإنَّ العبادات بأنواعها ترجع إلى أربعة أنواع:**

الأول: عبادات متعلقة بقول القلب: وهو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله، –وملائكته ولقائه على لسان رسله.

الثاني: عبادات متعلقة بقول اللسان: وهو الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذب عنه وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

الثالث: عبادات متعلقة بعمل القلب: كالمحبة له والتوكل عليه والإنابة إليه والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره والرضى به عنه، والموالاة فيه والمعاداة فيه، والذل له، والخضوع، والإخبات إليه والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب، التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة.

الرابع: عبادات متعلقة بأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

فهذه الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة كلُّها داخلة في مسمى العبادة، ولا يجوز صرفها لغير الله عز وجل، لأنها حقٌ خالص له سبحانه وتعالى.

قال ابن القيم رحمه الله: " فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة

والتقوى والخشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار، وحلق الرأس خضوعًا وتعبدًا، والطواف بالبيت، والدعاء، كل ذلك محضُ حقِّ الله، لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب، ولا نبي مرسل".

ويدخل في العبادة: ترك المعصية؛ لأنَّ ما يحبه الله تعالى قد يكون فعلًا لطاعة وقد يكون تركًا لمعصية، والترك نوعان: تركٌ ظاهر وتركٌ باطن.

وقد أضاف الشيخ السعدي رحمه الله كلمة: " التروك" إلى تعريف العبادة فقال:

(العبادة والعبودية لله: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، فكلُّ ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة؛ ولهذا كان تارك المعصية لله متعبِّدًا متقربًا إلى ربه بذلك).

والعبادة شرط قبولها: الإخلاص والمتابعة، فالإسلام أسبغ على أعمال الإنسان كلها صفة العبادة، إذا تحقق فيها شرطا قبول العمل، وهما:

أولًا: الإخلاص، بأنْ يكون العمل خالصا لوجه الله الكريم، كما قال الله تعالى:(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء) [البينة: من الآية٥]، فينوي العبد أنْ يكون عمله، وقوله، وإعطاؤه، ومنعه، وحبه، وبغضه لله وحده، لا شريك له؛ إذا الأعمال لا تقوم

إلا بالنيات، فلا ثواب على عمل شرعي إلا إذا قصد به وجه الله سبحانه وتعالى، كما دلَّ عليه حديث عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: (إِنَّما الأَعمال بالنيَّاتِ (وفي روايةٍ: العملُ بالنيَّةِ) رواه البخاري ومسلم، فالنية تتحكم في العمل، وتقلبه إلى عبادة.

ثانيًا: المتابعة، بأنْ يكون العمل على منهاج رسول الله ﷺ، وهديه القويم، كما قال تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) [الحشر: من الآية٧] . فالأعمال لا اعتبار لها إلا إذا كانت على الوجه الذي رسمه الشرع.

وقد روتْ أمُّ المؤمنين عاشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ قال: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد" رواه البخاري ومسلم.

وكلُّ عمل بلا متابعة، فإنه لا يزيد عامله إلا بعدًا من الله؛ فإن الله عز وجل إنما يعبد بأمره، لا بالأهواء، ولا الآراء.

والمسلك الحسن ليس في إخلاص العمل لله عز وجل فحسب، ولا في متابعة الرسول ﷺ فقط، بل في مجموعهما معًا، فإنَّ الله عز وجل ذكر العمل الصالح، فقال: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) [الكهف: من الآية ١١٠]، والعمل الصالح هو: الخالص الصواب، فإذا جمع العمل هذين الشرطين، كان عبادة.

والعبادة قائمة على ثلاثة أركان: وهي: المحبة والخوف والرجاء.

ومن هذه الثلاثة تلتئم العبادة؛ فإن تحققت هذه الثلاثة تحققت العبادة، وإلا فلا: فالحبُّ وحده ليس عبادة؛ لجواز أن يكون الشخص محبوبًا، ولا يكون معبودًا؛ لفقدان الخوف والرجاء، أو أحدهما: كالولد؛ فإنه محبوب وليس بمعبود.

وكذا الخوف وحده ليس عبادة؛ لجواز أن يكون الشخص يخاف منه، ولا يكون معبودًا؛ لعدم تحقق المحبة والرجاء، أو أحدهما.

إلا إذا وصل أحد هذه الأركان إلى درجة تليق بالله، كالحب مثلًا يكون عبادة إذا وصل إلى درجة حب الله لقوله تعالى: (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) [البقرة: ١٦٥] .

والحاصل: أنه لا تتحقق العبادة ما لم تجتمع هذه الأركان الثلاثة.

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: (وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِالْحُبِّ وَحْدَهُ فَهُوَ زِنْدِيقٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْخَوْفِ وَحْدَهُ فَهُوَ حروري، وروي: وَمَنْ عَبَدَهُ بِالرَّجَاءِ وَحْدَهُ فَهُوَ مُرْجِئٌ، وَمَنْ عَبَدَهُ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ).

وقد جمع الله تعالى هذه الأركان الثلاثة في قوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) [الإسراء: ٥٧].

فقوله تعالى: (يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ): إشارة إلى ركنية المحبة.

وقوله تعالى: (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ): دليل على ركنية الرجاء.

وقوله تعالى: (وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ): دليل على ركنية الخوف.

قال السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية: (وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمَّت له تمَّت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور، وعلامة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب).

هذا هو تعريف التوحيد بالإطلاق الخاصِّ وهو: إفراد الله تعالى بالعبادة.

ومن النصوص الدالة على أنَّ التوحيد في الشرع يُطلَقُ ويراد به: إفراد الله تعالى بالعبادة: حديث عمرو بن شُعَيب عن أبيه عن جده: أنَّ العاص بن وائل نَذَر في الجاهلية أن ينحَر مائة بَدَنَة، وأنَّ هشام بن العاص نحر حصَّته، خمسين بدنة، وأنَّ عَمْرًا سأل النبي ﷺ عنِ ذلك؟، فقال: " أمّا أبوكَ فلو كان أَقّر **بالتوحيد** فصُمْتَ وتصدقت عنه نَفعه ذلك" رواه أحمد، وصححه الألباني.

قال الإمام الدارمي رحمه الله: "وتفسير التوحيد عند الأمة، وصوابه، قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له".

وتعريف العلماء للتوحيد بالمعنى الخاص؛ لأنه يتضمن إثبات أسماء الله تعالى وصفاته وإثبات ربوبيته؛ ولأنَّ العبادة هي الغاية من خلق الإنس والجن، فمن وحَّد الله تعالى بأسمائه وصفاته وربوبيته ولم يعبده

لم يكن موحدًا، ومن عبده ولكن ألحد في أسمائه وصفاته لم يكن موحدًا.

وعليه فالتعريف الخاص يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة المذكورة في التعريف العام.

والتوحيد الذي بُعثت به الرسل هو أول واجب على المكلَّفِ، وقد ادَّعى المتكلمون من المعتزلة والأشاعرة ومن وافقهم أنَّ أول واجب على المكلف هو المعرفة والإقرار بوجود الله، أو النظر المفضي إلى تلك المعرفة أو القصد إلى النظر وهو أول جزء منه، أو الشك في الله تعالى؛ لأنه متقدم على النظر، وهو الدافع إليه.

وخلاصة ما عندهم من شبه في هذا الباب: دعواهم أنَّ معرفة الله تعالى هي أصل المعارف الدينية، وعليها يتفرع وجوب كل واجب، واحتجوا على ذلك برواية في الصحيحين وردت في حديث بعث معاذ ﷺ إلى اليمن وهي قوله ﷺ: " فإذا عرفوا الله"، وعليه فمعرفة الله واجبة فلا تتم إلا بما ذكروه، واحتجوا بالنصوص الآمرة بالتفكر والنظر والتدبر، وبالنصوص الدالة على ذم التقليد، وبمحاجة إبراهيم عليه السلام لقومه حين نظر إلى الكواكب والقمر والشمس واستدل على نفي ربوبيتها بالأفول.

والنصوص التي احتجوا بها لا يستقيم وجه استدلالهم بها.

فرواية: " فإذا عرفوا الله"، بينتها رواية البخاري الأخرى: " فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله".

والنصوص الآمرة بالتفكر والنظر والتدبر ليست في محل النزاع، بل

هي مطلوبة شرعًا فلا وجه للاحتجاج بها على عدم قبول إسلام أحد إلا بالنظر.

فمعرفة الله فطرية كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

والنصوص الدالة على ذم التقليد، لا حجة لهم فيها.

فالسلف القائلون بأن عبادة الله تعالى وحده أول واجب على المكلف متبعون للنصوص الواردة في ذلك لا مقلدون.

ومحاجة إبراهيم عليه السلام لقومه حين نظر إلى الكواكب والقمر والشمس، ليست في تقرير وجود الله تعالى، فقومه لم ينازعوه في ذلك، فالمقام مقام مناظرة، من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته، فليس عليه دليل.

وقد ذكر الإمام أبو المظفر السمعاني رحمه الله جوابًا مجملًا في إبطال مقالاتهم فقال: " ولو أنك تدبرت جميع أقوالهم وكتبهم لم تجد هذا في شيء منها منقولًا من النبي ﷺ، ولا من أصحابه وكذلك من التابعين بعدهم، وكيف يجوز أن يخفى عليهم أول الفرائض وهم صدر هذه الأمة والسفراء بيننا وبين رسول الله ﷺ؟!.

هذا وقد تواترت الأخبار أن النبي ﷺ كان يدعو الكفار إلى الإسلام والشهادتين، ولم يرو أنه دعاهم إلى النظر والاستدلال، وإنما يكون حكم الكافر في الشرع أن يدعى إلى الإسلام فإن أبى وسأل النظرة والإمهال أنْ لا يجاب إلى ذلك.

ولا يجوز على طريقهم الإقدام على هذا الكافر بالقتل والسبي إلا بعد أن يذكر له هذا ويمهل؛ لأن النظر والاستدلال لا يكون إلا بمهلة وخصوصًا إذا طلب الكافر ذلك، وربما لا يتفق النظر والاستدلال في مدة يسيرة فيحتاج إلى إمهال الكفار مدة طويلة تأتي على سنين، ليتمكنوا من النظر على التمام والكمال وهو خلاف إجماع المسلمين".

قال المؤلف رحمه الله:

وهو دين الرسل الذي أرسلَهم الله به إلى عباده، فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين وَدٍّ وسواعٍ ويغوثَ ويعوقَ ونسرٍ، وآخر الرسل محمد صَلى الله عَليه وسلم، وهو الذي كسَّر صور هؤلاء الصالحين.

الشرح:

قوله: (**وهو دين الرسل الذين أرسلَهم الله به إلى عباده**)، **المراد:** أنَّ التوحيد هو دينُ الرسل جميعًا من أولهم نوح عليه الصلاة والسلام إلى آخرهم نبينا محمد ﷺ.

فهو أول دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾، [النحل: ٣٦].

وبهذا التوحيد أنزل الله عزَّ وجلَّ الكتب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين، وعليه يقع الثواب أو العقاب في الدارين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "فالتوحيد ضد الشرك فإذا قام العبد بالتوحيد الذي هو حق الله فعبده لا يشرك به شيئًا كان موحدًا".

وهذا التوحيد هو الذي أُمِرَ رسولُ الله ﷺ أن يقاتِل الكفارَ عليه.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: « أمرتُ أنْ أقاتِل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله" رواه مسلم.

و: "لا إله إلا الله" هو معنى توحيد الألوهية.

قوله: (**فأولهم نوح عليه السلام**)، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ)، ولو كان هناك رسول قبل نوح لذكر.

وجاء في الصحيحين في حديث الشفاعة، وفيه: (فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا فَيَقُولُ آدَمُ إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنْ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ فَيَأْتُونَ نُوحًا عليه السَّلام **فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ** "، وهذا من أقوى الأدلة على أنَّ نوحًا عليه الصلاة والسلام أول الرسل.

قوله: (**أرسله الله إلى قومه**)، دون غيرهم، وقد أخرج البخاري في صحيحه حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه وفيه: " وكان النبي

يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة ".

وقوله: (**لما غلوا في الصالحين وَدٍّ وسواعٍ ويغوثَ ويعوقَ ونسرٍ**)، وهذا فيه بيان أنَّ أول شرك وقع في بني آدم كان في قوم نوح عليه الصلاة والسلام، وهذا القول هو الراجح؛ وقيل: أول شرك في بني آدم كان من قابيل، وهذا القول أورده الطبري بصيغة التمريض دون إسناد، فلا يُلتَفَتُ إليه، وقيل: بداية الشرك كان في زمن يرد بن مهلائل، وهو أبو إدريس عليه السلام، وهذا القول أسنده الطبري، من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه وهما ضعيفان بل متهمان، وقيل: أول شرك وقع في بني آدم إنما هو من قبل أبناء قابيل، وهذه الرواية أوردها ابن الكلبي من طريق هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه، وسبق بيان ضعفها، فهذه الأقوال الثلاثة كلها لا تصحُّ.

ومما يدل على أنَّ أول شرك وقع في بني آدم كان في قوم نوح عليه الصلاة والسلام قول الله تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

روى الحافظ ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين".

وقال السيوطي رحمه الله: " أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو

يعلى، والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ قال: على الإسلام كلهم".

وكان أول ما كادهم به الشيطان من جهة تعظيم الصالحين، كما ذكر الله ذلك في كتابه في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

وقد ذكر الكلبي في كتابه: الأصنام، وذكر أهل التفسير أنَّ هؤلاء كانوا قومًا صالحين فماتوا في شهر، فجزع عليهم أقاربهم وصوّروا صورهم، وقيل: إنَّ أصحابهم قالوا: لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة، فكان الرجل يأتي أخاه وابن عمه فيعظمه حتى ذهب ذلك القرن، ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من الأول، ثم جاء القرن الثالث فقالوا: ما عظَّم أولُنا هؤلاء إلاَّ وهم يرجون شفاعتهم.

فلما بعث الله نوحًا، وغرق من غرق أهبط الماء هذه الأصنام من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض جدة، فلما نضب الماء بقيت على الشط فسفت الريح عليها حتى وارتها، ثم عَمَر نوح -عليه السلام- وذريته الأرض، وبقوا على الإسلام ما شاء الله، ثم حدث فيهم الشرك.

قال ابن القيم رحمه الله في إغاثة اللهفان: (وقال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قومًا صالحين فى قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم).

وفي هذا تنبيه إلى أنَّ أعظم أسباب الوقوع في الشرك هو الغلو في

الصالحين، فالغلو في الصالحين من أسباب كفر بني آدم في القديم والحديث.

والغلو هو التجاوز في الحد، والمراد به هنا مجاوزة الحد في المحبة والتعظيم، فالغلو سببٌ للكفر والخروج من دين الله جل وعلا، وخصوصًا إذا كان في الصالحين؛ فإنَّ الشيطان يخرج الشرك في قالب محبة هؤلاء المشركين، ويحسِّن لهم أنَّ هذا الصنيع هو التوحيد بعينه؛ لأن هؤلاء لهم جاه فيُستشفع بهم لقضاء الحوائج وتفريج الكربات.

قوله: (وآخر الرسل محمد ﷺ)، والدليل على أنَّ محمدًا ﷺ آخرهم قول الله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ).

وقد أجمع الصحابة على أن محمدًا ﷺ خاتم الرسل والأنبياء وعُرِف ذلك وتواتر بينهم وفي مَنْ بعدهم ولذلك لم يترددوا في تكفير مسيلمة والأسود العنسي فصار معلومًا من الدين بالضرورة فمن أنكره فهو كافر خارج عن الإسلام ولو كان معترفًا بأنَّ محمدًا ﷺ رسولُ الله للناس كلهم.

وقد تعرضت عقيدة ختم النبوة للإنكار قديمًا وحديثًا، وبدأ ذلك الإنكار منذ عهد الرسول ﷺ، وفي العصورة المتاخرة ظهرت القاديانية والبهائية الذين ينكرون ختم النبوة ويؤولون النصوص الواردة في ذلك.

وقوله: (**وهو الذي كسَّر صور هؤلاء**)، اسم الإشارة في (هؤلاء) عائد إلى الأصنام المصوَّرة على صور الرجال الصالحين الذين غلا فيهم قوم نوح.

يدل على ذلك قول ابْنِ عَبَّاسٍ رضى الله عنهما: (صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا (وُدٌّ) كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا (سُوَاعٌ) كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا (يَغُوثُ) فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُوْفِ عِنْدَ سَبَأَ، وَأَمَّا (يَعُوقُ) فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا (نَسْرٌ) فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لآلِ ذِي الْكَلاَعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ؛ عُبِدَتْ) رواه البخاري.

والعرب الذين بُعث إليهم النبي ﷺ لم يكونوا يعبدون الأصنام لذاتها بل لأنها كانت صورًا للصالحين، ولأن أرواح الصالحين تحلُّ فيها بزعمهم، فكانوا يتوجهون إليها بحجة أنها شفعاء ووسائط عند الله تعالى فيسألونهم ويدعونهم ويتوكلون عليهم ويصرفون لهم أنواع العبادات.

وكسرُ الأوثان من ما كلَّفَ الله تعالى بها نبيه ﷺ كما روى مسلم ذلك في صحيحه عن عَمْرو بْن عَبْسَةَ السُّلَمِيّ رضي الله عنه وفيه: فقلت: وبأيّ شيء أرسلك؟ فقال رسول الله ﷺ: (أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ).

وهذا الحديث فيه أثر من آثار الشرك، فإن التعلق بهذه الأصنام

الخمسة قديم جدًا، فإنها وجدتْ قبل مبعث نوح عليه الصلاة والسلام حتى كسَّرها النبي ﷺ، وهذا فيه تنبيه إلى أنَّ الشرك إذا وقع فإنه رفعه عظيم.

قال المؤلف رحمه الله:

أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرًا، ولكنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، يقولون: نريد منهم التقربَ إلى الله ونريد شفاعتهم عنده، مثل الملائكة، وعيسى، ومريم ، وأناسٍ غيرهم من الصالحين.

الشرح:

أرسل الله النبي ﷺ إلى أناس من قريش وغيرهم ، فنبينا ﷺ بُعث إلى الناس كافة، كما قال الله تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) أي: عربيكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم.

وهؤلاء الذين أُرسل إليهم يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرًا.

فكانوا يقومون ببعض العبادات فيما يظهر لكنهم لم ينتفعوا بها لحصول الخلل في توحيد العبادة، ومن ذلك:

أنَّ هؤلاء الكفار الذين بُعث إليهم النبي ﷺ كانوا يحبون الله تعالى، كما قال الله عنهم: (وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُوْنِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّوْنَهُمْ كَحُبِّ اللهِ)، والمعنى: وجِد في المشركين من يتَّخذ مع الله جل وعلا أندَادًا، والنِدُّ هو الشبيه والنظير والمثيل يُحِبُّوْنَهُمْ كَحُبِّ اللهِ، فبيَّن سبحانه أنَّ المشركين بربِّهِم الذين يتَّخذون من دون الله أندادًا وإن كانوا يحبُّونهم كما يحبون الله، فالذين آمنوا أشدّ حبًا منهم لله ولأوثانهم؛ لأنَّ المؤمنين أعلم بالله والحب يتبع العلم، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره وأشركوا

بينه وبين الأنداد في الحب، فدلت هذه الآية على أنَّ كل من اتخذ نِدّاً لله يحبه كحبِّه لله فقد وقع في الشرك الأكبر.

وقد أخبر الله تعالى عنهم قيامهم ببعض العبادات فقال: (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ) أي: أعمالهم التي ظاهرها التعبد لله وقد رجوا أن تكون خيرًا لهم وتعبوا فيها، (فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا) أي باطلًا مضمحلًا قد خسروه وحرموا أجره وعوقبوا عليه وذلك لفقده الإيمان وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص المصدق للرسل المتبع لهم فيه.

وكانوا يقومون بسقاية الحاج من ماء زمزم، وبعمارة المسجد الحرام كما قال الله تعالى عنهم: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)، لكن الجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال.

ومما ورد في عباداتهم ما جاء في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ عمر رضي الله عنه سأل النبي ﷺ قال : كنت نذرت في الجاهلية أنْ اعتكف ليلة في المسجد الحرام ، قال : (فأوف بنذرك) رواه البخاري.

وكانوا يحجون جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: " كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال فيقول رسول ﷺ: (ويلكم قد قد) فيقولون : إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك ؛

يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت" رواه مسلم.

وكانوا يصومون عاشوراء كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية ... " رواه البخاري.

وكانوا يتصدقون كما جاء حديث عروة أنَّ حكيمَ بن حِزامٍ رضيَ الله عنه أعتقَ في الجاهليةِ مائةَ رقبةٍ، وحمل على مائةِ بعيرٍ، فلمَّا أسلَم؛ حَمَل على مائةِ بعيرٍ، وأعتَقَ مائةَ رقبةٍ، قال: فسألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! أرأيتَ أشياءَ كنتُ أصنَعُها في الجاهليةِ، كنتُ أتحنَّث بها من صدقةٍ، أو عَتاقةٍ، وصِلةِ رحمٍ يعني أتَبرَّرُ بها فهل لي فيها من أجْرٍ؟ قال: فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أسْلَمْتَ على ماسَلَفَ لك مِن خيرٍ" رواه البخاري.

وكانوا يذكرون الله كثيرًا، ومنه قوله الله تعالى عنهم: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ)، فهؤلاء عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى من أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال عنهم مشقة، ومنه تلبيتهم الشركية كما تقدَّم.

ومنه ما جرى مِنْ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَدِّ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لماَ رَجَتْ قُرَيْشٌ مِنَ الْحَرَمِ فَارَّةً مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَخْرُجُ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ أَبْتَغِي الْعِزَّ فِي غَيْرِهِ، فَجَلَسَ عِنْدَ

الْبَيْتِ، وَأَجْلَتْ عَنْهُ قُرَيْشٌ **فَقَالَ**:

لَاهُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ رِحَالَكْ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ غَدْوًا مِحَالَكْ

فَلَمْ يَزَلْ ثَابِتًا حَتَّى أَهْلَكَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْفِيلَ وَأَصْحَابَهُ.

وهؤلاء المشركون مع قيامهم بما مضى إلا أنهم يجعلون بعض المخلوقات وسائط بينهم وبين الله، يقولون: نريد منهم التقربَ إلى الله ونريد شفاعتهم عنده، مثل الملائكة، وعيسى، ومريم ، وأناسٍ غيرهم من الصالحين.

والنبي ﷺ بُعِثَ على أناس متفرقين في عباداتهم فأديانهم متنوعة ولكن يجمعهم الشرك الأكبر.

فمنهم من يعبد الملائكة فيقول: يا ملائكة اشفعوا لي عند الله.

والدليل على أن هناك من يعبدهم، ونهي الله تعالى عن ذلك قول الله تعالى: (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا) ، فهذه الآية نزلت ردا لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقال تعالى: (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا)، وهذا تعميم بعد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم.

ومنهم من يعبد الأنبياء لأجلِ صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا لهم.

والدليل على أن هناك من يعبدهم: قول الله تعالى: (**وإذْ قَالَ الله)** أَيْ: واذكر حين يَقُول الله تعالى لِعِيسَى بن مريم فِي الْقِيَامَة تَوْبِيخًا لِقَوْمِهِ (**يَا عِيسَى بن مَرْيَم أَأَنْت قُلْت لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُون اللَّه قَالَ)** عِيسَى **(سُبْحَانك)** تَنْزِيهًا لَك عَمَّا لَا يَلِيق بِك مِنْ شَرِيك وَغَيْره **(مَا يَكُون)** مَا يَنْبَغِي(**لِي أَنْ أَقُول مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ)** أي: لست أستحق العبادة فأدعو الناس إليها، (**إنْ كُنْت قُلْتُه فَقَدْ عَلِمْته تَعْلَم مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَم مَا فِي نَفْسك إنك أنت علام الغيوب)** فأنت تعلم ما أعلم وأنا لاأعلم ما تعلم، فتبرأ عيسى عليه السلام من صرفهم العبادة له وَحَكَمَ ببطلانها.

ومنهم من يعبد الصالحين لأجلِ صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا لهم.

والدليل على أنَّ هناك من يعبد الصالحين والحكم ببطلان هذه العبادة، قول الله تعالى: (**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ)** من الأنبياء والصالحين والملائكة (**يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ)** أي: يتنافسون في القرب من ربهم ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار.

قال بعض أهل العلم: لم تُعبَد الأشجار والأحجار لذاتهما من المشركين وإنما عُبِدَت لعلاقتهما بالصالحين، والدليل على أن هناك

من يعبدهما، قوله تعالى: (**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى – وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى**) فلما ذكر الله تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا "اللات" من "الإله" المستحق للعبادة، و"العزى" من "العزيز" و "مناة" من "المنان" إلحادا في أسماء الله وتجريًا على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني، فكل من له أدنى مسكةٌ من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

ومنهم من يعبد الشمس والقمر.

والدليل على أنَّ هناك من يعبدهما ونهي الله تعالى لهم عن ذلك: قَوْلُهُ تَعَالَى: (**وَمِنْ آيَاتِهِ**) الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له (**اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**) هذا بمنفعة ضيائه، وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعه ظلمه، وسكون الخلق فيه (**وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**) اللذان لا تستقيم معايش العباد، ولا أبدانهم، ولا أبدان حيواناتهم، إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده، (**لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ**) فإنهما

مدبران مسخران مخلوقان، (**وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الذي خلقهن**) أي: اعبدوه وحده، لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه، من المخلوقات، وإن كبر، جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه، تبارك وتعالى، (**إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**) فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

فتَعَلَّقَ المخالفون بالقرب والوسائط، والوسائل الشركية، وزعموا: أنَّ عظمة الرب وجلاله تقتضي أنْ لا يُتقرب إلى الله عزَّ وجلَّ إلا بواسطةٍ وحجاب، فالتقرب إليه ابتداء من غير شفعاء ووسائط، غضٌ من جنابه الرفيع.

والدليل على اعتقاد المشركين في المعبودات من دون الله وأنها تقربهم إلى الله تعالى، قول الله تعالى: (**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ**) أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، معتذرين عن أنفسهم وقائلين: (**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**) أي: لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئًا (**إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**) أي: بين الفريقين، المخلصين والمشركين، وفي ضمنه التهديد للمشركين (**إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي**) أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم (**مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**) أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتيه المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدها ويكفر بها ويكذب، فهذا أنَّى له الهدى

وقد سدَّ على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن؟

والدليل على اعتقاد المشركين في المعبودات من دون الله وأنها تشفع لهم عند الله تعالى قول الله تعالى: (**وَيَعْبُدُونَ**) أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ (**مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ**) أي: لا تملك لهم هذه المعبودات مثقال ذرة من النفع ولا تدفع عنهم شيئا، (**وَيَقُولُونَ**) قولًا خاليًا من البرهان: (**هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**) أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم.

فالمشركون يقولون في الجواب على من أنكر عليهم: ما دعونا الملائكة وعيسى بنَ مريم عليه الصلاة والسلام وأمَّه والصالحين وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة، **فالمشركون يزعمون**: إنهم لا يعتقدون في الموتى الاستقلال بالتأثير، ولا الخلق والإيجاد، بل يعتقدون أنَّ الاستقلال بالتأثير وإيجاد النفع لله تعالى، ويعتقدون فيهم أنهم أسبابٌ ووسائل ووسائط، وأنهم شفعاء لهم عند الله تعالى لما لهم من المنزلة الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى، فجعلوا الموتى واسطة بين العباد ورب العباد، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم، أنَّ الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء، وشفعاء، ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهِّدون لهم الأمر في

ذلك، فالله تعالى كذلك.

وهذه الشبهة وجوابها ذكرها شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في: الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال.

وخلاصة جوابه عنها أنَّ دعواهم هذه باطلة من وجوه:

منها: أنَّ الذي لا يتقرب إليه إلا بوسائط وحجاب: إما أن يكون قادرًا على سماع كلام جنده وقضاء حوائجهم بدون الوسائط والحجاب، وإما أن لا يكون قادرًا.

فإنْ لم يكن قادرًا كان هذا نقصًا، والله تعالى موصوف بالكمال، فوجب أن يكون متصفًا بأنه يسمع كلام عباده بلا وسائط، ويجيب دعاءهم، ويحسن إليهم بدون حاجة إلى حجاب.

وإن كان الملك قادرًا على فعل أموره بدون الحجاب، وترك الحجاب إحسانًا ورحمة كان ذلك صفة كمال.

وأيضًا: **فقول القائل**: إن هذا غَضٌّ منه، إنما يكون فيمن يمكن الخلق أن يضروه ويفتقر في نفعه إليهم، فأما مع كمال قدرته واستغنائه عنهم، وأمنه أن يؤذوه، فليس تقربهم إليه غضًا منه، **بل إذا كان اثنان**:

أحدهما: يقرب إليه الضعفاء إحسانًا إليهم ولا يخاف منهم.

والآخر: لا يفعل ذلك إما خوفًا وإما كبرًا وإما غير ذلك، كان الأول أكمل من الثاني.

وأيضًا: فإن هذا لا يقال إذا كان ذلك بأمر المطاع، بل إذا أذن

للناس في التقرب منه، ودخول داره، لم يكن ذلك سوء أدب عليه ولا غضًا منه، فهذا إنكار على من تعبده بغير ما شرع.

ولهذا قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وقال تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ ﴾[الشورى: ٢١].

قال المؤلف رحمه الله:

فبعث الله محمداً ﷺ يجدد لهم دين إبراهيم، ويخبرهم أنَّ هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله؛ لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلاً عن غيرِهما.

الشرح:

بعث اللهُ تعالى نبيَّه محمدًا ﷺ إلى هؤلاء المشركين مع أنهم كانوا يتعبدون بالعبادات التي سبق بيانُ شيء منها، وسبب بعثته إليهم وقوعهم في أنوع من الشرك الأكبر، منها شرك الشفاعة، ويقع هذا الشرك إذا اتخذ العبد من دون الله أندادًا، فصرف لهم نوعًا من أنواع العبادة، أو كلها، وتوجه بهم، وتقرب بعبادتهم إلى الله، زاعمًا أنَّ معبوداته هذه تشفع له عند الله، وتقربه منه زلفى.

ومن أدلة هذا النوع قول الله عز وجل: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

فأرسله الله إلى هؤلاء المشركين؛ ليجدد لهم دين أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فإنَّ قريشًا كانت على دين أبيهم إبراهيم، وسبب مفارقة العرب للحنيفية وتسربِ الوثنية إليهم ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنَّ رسول ﷺ قال: « رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ عَامِرِ بْنَ لُحَيٍّ الْخُزَاعِيَّ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائِبَ» هذا لفظ البخاري وزاد مسلم في روايته:"وبحَّر البحيرة،

وغيَّر دين إسماعيل".

قال الكلبي في كتابه الأصنام: (وَكَانَ الَّذِي سَلَخَ بِهِمْ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَان وَالْحِجَارَة أَنه كَانَ لَا يظعن من مَكَّة ظَاعِنٌ إِلا احْتَمَلَ مَعَهُ حَجَرًا مِنْ حِجَارَةِ الْحَرَمِ تَعْظِيمًا لِلْحَرَمِ وَصَبَابَةً بِمَكَّةَ فَحَيْثُمَا حَلُّوا وضعوه وطافوا بِهِ كطوافهم بالكعبة تيمنًا مِنْهُم بهَا وصبابة بِالْحرم وحبًا بهَا وَهُمْ بَعْدُ يُعَظِّمُونَ الْكَعْبَةَ وَمَكَّةَ وَيَحُجُّونَ وَيَعْتَمِرُونَ عَلَى إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلامُ ثُمَّ سَلَخَ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَنْ عَبَدُوا مَا اسْتَحَبُّوا وَنَسُوا مَا كَانُوا عَلَيْهِ وَاسْتَبْدَلُوا بِدِينِ إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيل غَيره فعبدوا الأَوْثَانَ وَصَارُوا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ الأُمَمُ مِنْ قَبْلِهِمْ وَانْتَجَثُوا مَا كَانَ يَعْبُدُ قَوْمُ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ مِنْهَا عَلَى إِرْثِ مَا بَقِي فيهم مِنْ ذِكْرِهَا وَفِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ بَقَايَا مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ يَتَنَسَّكُونَ بِهَا مِنْ تَعْظِيمِ الْبَيْتِ وَالطَّوَافِ بِهِ وَالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْوُقُوفِ عَلَى عَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَإِهْدَاءِ الْبُدْنِ وَالإِهْلالِ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مَعَ إدخالهم فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ).

فأرسل الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ إلى هؤلاء المشركين كما قال الله تعالى: (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبل لفي ضلال مبين) [الجمعة : ٢].

والمراد بالأميين: هم الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم، منة عظيمة، أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير،

وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء، فبعث الله فيهم رسولًا منهم، يعرفون نسبه، وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ) القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، (وَيُزَكِّيهِمْ) بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصِّلُها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة، (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، أي: علم القرآن وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقًا، وأحسنهم هديًا وسمتًا، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين، فلله عليهم ببعثه هذا الرسول ﷺ، أكمل نعمة، وأجل منحة.

قال: (**ويخبرهم أنَّ هذا التقرب والاعتقاد)** الذي يعتقدونه في الآلهة المعبودة من دون الله تعالى (**محض حقِ الله)** فإنَّ التقرب حقٌ خالص لله وحده من العبادة لا يجوز أن يصرف لغيره، كما قال الله تعالى: (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) ففي هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به، لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، وللإنابة إليه في عبوديته، والإنابة

إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يُصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله تعالى فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشْقٍ للنفوس غاية الشقاء، قال: (**لا يصلح منه شيء لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل فضلاً عن غيرِهما**) فالله تعالى لا يرضى أن يُشرَك معه أحد في عبادته لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، فلا يجوز أن يُشرك معه في عبادته، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وما دونهما من باب أولى، والدليل قوله تعالى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً) [الجن:١٨]، أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته، فنهى عن دعاء غيره سبحانه.

وبهذا يتبيَّن أن كفار قريش كانوا يدَّعون أنهم على ملة إبراهيم، ويتعبَّدون بأنواع من العبادات، ومع ذلك فقد كفرهم الله في كتابه، فلا عبرة بدعاويهم.

قال المؤلف رحمه الله:

وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق الرازق وحده لا شريك له، وانه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السموات السبع ومن فيهن والأرضين السبع ومن فيهن ، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره.

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهدون بهذا فأقرأ قوله تعالى ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ [يونس : ٣١]، وقوله : ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩] وغير ذلك من الآيات .

الشرح:

مضمونُ ما ذكره المؤلف رحمه الله: هو بيانُ أنَّ الكفار الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ وقاتلهم على اختلاف أنواعهم مقرُّون ومعترفون بألسنتهم، ومعتقدون بقلوبهم، بأنَّ الله تعالى هو الخالق الذي خلق

جميع الموجودات من العدم، الرازق لجميع المخلوقات، فما من موجود في العالم العلوي والعالم السفلي إلا متمتع برزقه مغمور بكرمه، وأنه المحيي المميت المدبر والمصرِّف لأنواع التدابير، وأن ذلك الإقرار لم يدخلهم في الإسلام لأنهم لم يأتوا بتوحيد الألوهية.

فهم مقرون بتوحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية في الشرع عُرِّف بعدة تعريفات مِنْها:

قول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وَإِقْرَاره بإلوهية الله تَعَالَى دون مَا سواهُ يتَضَمَّن إِقْرَاره بربوبيته وَهُوَ: أَنه ربُّ كلِّ شَيْء ومليكُه وخالقه ومدبره".

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: "وهو إفراد الله سبحانه وتعالى في أمور ثلاثة؛ في الخلق، والملك، والتدبير".

فالخلق: يدخل فيه الإبداع والإيجاد والإنشاء وفق تقدير سابق.

والملك والتدبير يدخل فيها: تصرفه سبحانه في خلقه، من إحياء، وإماتة، ورزق، إلى غير ذلك من تدبيره لمخلوقاته، كما يتضمن غناه سبحانه عنهم وفقرهم إليه، وهذه صفات الرب جل وعلا.

وتوحيدُ الربوبية أَقَرَّ به أكثر الخلق، ولم ينكره إلا شواذ الخلق، وهم من وقع في شرك التعطيل كفرعون الذي قال:(أنا ربكم الأعلى) ولم يقع منه إلا ادعاءًا كما قال الله تعالى: (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) وكذا وقع فيه الشيوعيون القائلون بأن الخالق هو الطبيعة، وغلاة المتصوفة كابن سبعين والفارض وابن عربي،

ومن وقع في شرك التشريك وهو: اعتقاد وجود شريك مع الله في أفعاله حيث وقع فيه النصارى الذين قالوا :(إن الله ثالث ثلاثة)، وكذا وقع فيه نفاة القدر القائلون بأن العبد يخلق فعله .

فهذا القسم من أقسام التوحيد لا يكفي للدخول في الإسلام حتى يقترن به توحيد العبادة.

والدليل، على إقرارهم بتوحيد الربوبية:

قول الله تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ).

والمعنى: (قُلْ) لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطانًا – محتجًا عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية دون تحقيقٍ له، على ما أنكروه من توحيد الألوهية– (مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟ (أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ)، أي: من الذي خلقهما وهو مالكهما؟ وخصَّهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما، (وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)، كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك، (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ)، وهو عكس هذه المذكورات، (وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ) في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك (فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) لأنهم يعترفون بجميع

ذلك، وأنَّ الله لا شريك له في شيء من المذكورات(فَقُلْ) لهم إلزامًا بالحجة (أَفَلا تَتَّقُونَ) الله تعالى فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

وقوله تعالى: (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ – سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ – قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ – سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ – قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ – سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ).

والمعنى: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجًا عليهم بما أثبتوه، وأقروا به، من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذي هو أسهل من ذلك، (لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا) أي: من هو الخالق للأرض ومن عليها، من حيوان، ونبات وجماد وبحار وأنهار وجبال، المالك لذلك، المدبر له؟ فإنك إذا سألتهم عن ذلك، لا بد أن يقولوا: الله وحده، فقل لهم إذا أقروا بذلك: (أَفَلا تَذَكَّرُونَ) أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكَّركم الله تعالى به، مما هو معلوم عندكم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إنْ رجعتم إلى ذاكرتكم، بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل ثم انتقل إلى ما هو أعظم من

ذلك، فقال: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ) وما فيها من النيرات، والكواكب السيارات، والثوابت (وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) أي: سيقرُّون بأن الله رب ذلك كله، قل لهم حين يقرون بذلك: (أَفَلا تَتَّقُونَ) عبادة المخلوقات العاجزة، وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: (أَفَلا تذكرون) (أفلا تَتَّقُونَ) والوعظُ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال: (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) أي: مِلْك كلِّ شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره؟ والملكوت بصيغة مبالغة بمعنى الملك، (وَهُوَ يُجِيرُ) عباده من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم، (وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ) أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله تعالى، ولا يدفع الشر الذي قدره الله تعالى، بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، (سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)، أي: سيقرُّون أنَّ الله المالكُ لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه، (قُلْ) لهم حين يقرون بذلك، ملزمًا لهم، (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي – بلا شك– قد سحرها الشيطان، بما زيَّن لهم، وحسَّن لهم، وقلب الحقائقَ

لهم، فسحر عقولهم، كما سحرت السحرةُ أعين الناس.

قال: (وغيرَ ذلك من الآيات)، أي: اقرأ غير ذلك من الآيات الدالة على إقرار المشركين بالربوبية.

ومن تلكم الآيات: قول الله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)، **وقوله سبحانه:** (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)، **وقوله عزَّ وجلَّ:** (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ).

إذا تبيَّن هذا فيجب معرفة أمرين من أحكام توحيد الربوبية:

الأمر الأول: وجوب إفراد الله عزَّ وجلَّ وعلا بالعبادة.

ووجه تعلق هذا الحكم بالربوبية: أنَّ الربوبية تستلزم توحيد الألوهية وتقتضيه، فهي دليل عليه، وقد احتج الله عز وجل على المشركين بإقرارهم بالربوبية على وجوب إفراده بالألوهية، ومما يدل على ذلك: قوله عز وجل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾

أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " يقول تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ فعل هذا؟ وهذا استفهام الإنكار يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرّين بأنه لم يفعل ذلك غير الله، فاحتجَّ بذلك عليهم".

الأمر الثاني: أنه لا يتم توحيد الربوبية إلا بالإيمان بصفات الله عزَّ وجلَّ.

ووجه تعلق هذا الحكم بالربوبية: أنه لولا ثبوت صفات الله تعالى لم يكن ربًا خالقًا، بل لم يكن موجودًا أصلًا، فنفي الصفات مستلزم ومتضمن لنفي الذات.

فمن أعظم أسباب الانحراف في الربوبية نفي الصفات، ولذا لما نفت الاتحادية صفات الرب جل وعلا انحرفوا في باب الربوبية فقالوا: إنَّ الوجود واحد، فوجود الخالق هو وجود المخلوق، ومثلهم الجهمية المعطلة فإنهم لما نفوا الصفات جحدوا الخالق، وفعلوا كما كان فرعونُ يفعل، فكان يجحد الخالق ويقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨].

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: " لَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ وَالِاعْتِرَافُ بِالرُّبُوبِيَّةِ إِلَّا بِالْإِيمَانِ بِصِفَاتِهِ تَعَالَى".

قال المؤلف رحمه الله:

فإذا تحققت أنهم مقرُّون بهذا، وأنه لم يدخلهم في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، وعرفتَ أن التوحيدَ الذي جحدوه هو توحيدُ العبادةِ ، الذي يُسميه المشركون في زماننا الاعتقاد، وكانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجلِ صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات أو نبياً مثل عيسى.

الشرح:

المعنى: إذا تيقنت أنَّ الكفار الذين بُعث فيهم الرسول ﷺ وقاتلهم على اختلاف أنواعهم مقرُّون ومعترفون بألسنتهم، ومعتقدون بقلوبهم، بربوبية الله تعالى، وأن ذلك الإقرار لم يدخلهم في الإسلام لأنهم لم يأتوا بالتوحيد الذي دعاهم إليه الرسول ﷺ، وهو توحيد العبادة، وهو: الاعتقاد الجازم أنه لا يستحقُّ العبادةَ إلا الله عزَّ وجلَّ، والتزام ذلك والعمل به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وأما التوحيد الذي ذكره الله في كتابه وأنزل به كتبه وبعث به رسله واتفق عليه المسلمون من كل ملة فهو كما قال الأئمة شهادة أن لا إله إلا الله وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما بين ذلك بقوله: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[البقرة: ١٦٣]، فأخبر أن الإله إله واحد لا يجوز أن يتخذ إله غيره فلا يعبد إلا إياه".

والخلاصة: أنَّ توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية والعبادة.

فهو منه كالمقدمة من النتيجة، فإنه إذا عُلِمَ أنَّ الله سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته كانت العبادة حقَّه الذي لا ينبغي إلا له فإنه لا يصلح أن يعبد إلا من كان ربًا خالقًا مالكًا مدبرًا وما دام ذلك له وجب أن يكون هو المعبود وحده الذي لا يجوز أن يكون لأحد معه شركة في شيء من صور العبادة كلها ولهذا جرت سنة القرآن على سوق آيات الربوبية ثم الخلوص منها إلى الدعوة إلى توحيد الألوهية فيجعل الأولى برهاناً على الثانية كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:٢١]، وكما في قوله: ﴿ أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ ﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٢].

وقوله: (وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زماننا: الاعتقاد)، المعنى: من أنواع الكفر الأكبر: كفر الجحود، وهذا النوع يعمُّ كلَّ من كذَّب الرسل في الظاهر، وهو يعلم صدقهم في الباطن، فهذا هو الجاحد، وهذا حال كثير من المكذبين للرسل، خاصة ممن عاينوا آيات الأنبياء، قال تعالى عن فرعون وملائه: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾

[النمل: ١٤]، وقال عز وجل عن مشركي مكة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فإذا عرفت أنَّ الذي أنكره المشركون هو توحيد العبادة الذي يسميه المشركون في زمن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: "الاعتقاد" أي: في الصالحين، فيقولون: فلان فيه عقيدة، يعني: يصلح أن يُعتقد فيه أنه ينفع؛ إذا ادَّعوا في شخص الاعتقاد، يعني الادعاء فيه الألوهية، وله مسميات أخرى عندهم، فيسمون شركهم توسلًا أو تبركًا مشروعًا، أو نداء أو التجاء ونحو هذه العبارات التي لا تغيِّر من الحقائق شيئًا.

قال: (وكانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً، ثم منهم من يدعو الملائكة لأجلِ صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا له، أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات أو نبياً مثل عيسى).

سبق بيان شيء من عبادات المشركين ومن ذلك:

تعلقهم بالملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله تعالى ليشفعوا لهم، ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم في نفس الأمر للشيطان، وهم يظنون أنه يعبدون الملائكة، كما قال الله عز وجل: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ – قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ)، فلا أحد كائنًا ما كان يعبد غير الله إلا وقعت عبادته للشيطان نفسه.

فيتبين بهذا أنَّ إقرارهم بتوحيد الربوبية لا يكفي دخولًا في الإسلام دون الإقرار بتوحيد العبادة، ولهذا قاتل النبي ﷺ المشركين مع أنهم يقرون بتوحيد الربوبية.

ومن ذلك: تعلقهم بالصالحين لأجل صلاحهم وقربهم من الله تعالى ليشفعوا لهم، وقد سبق بيان تعلقهم بعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام.

ومنه: تعلقهم بالأصنام المصوَّرة على هيئة الصالحين، كما قال الله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) [النَّجم١٩-٢٠]، وهذا الخطاب للمشركين الذين كانوا يعبدون الأصنام وفيها اللات والعزى، واللاتُّ بتشديد التاء: نسبةٌ إلى رجلٍ كان يلُتُّ السَّويق للحاجّ، فلمّا مات عكفوا على قبره فعبدوه، فكانوا يعتقدون أنَّ هذه الأصنام تجلب البركة، وطلب البركة من هذه الأصنام هو عبادتها، فقال الله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) أي: أخبروني عن حالها هل نفعت أو ضرَّت حتى تكون شركاء لله تعالى؟ كيف تبيحون لأنفسكم تعظيمها وعبادتها من دون الله تعالى؟.

قال المؤلف رحمه الله:

وعرفت أنَّ رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله كما قال تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [الجن: ١٨].

وقال تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ﴾ [الرعد : ١٤].

الشرح:

بيّن المؤلف رحمه الله سبب قتال النبي ﷺ للمشركين وهو أنهم أشركوا في العبادة وصرفوها لغير الله تعالى، فالمشركُ شركًا أكبر حلالُ الدم والمال.

ومن الأدلة على قتاله لهم: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: " أمرتُ أنْ أقاتِل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله" رواه مسلم.

والمعاهَد والمستأمن والذمي لا يُتعرض لهم، ومَنْ له حق قتال الكفرة الذين حقهم القتل هو السلطان الأعظم، فلا يجوز الافتيات عليه فيما هو من صلاحياته.

والنبي ﷺ دعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ومما يدل على ذلك:

عموم قول الله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون)، فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى، كما قال سبحانه: (وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ).

وقال سبحانه: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا).

وقوله عزّ وجلّ: (وَأَنَّ الْمَساجِدَ لِلَّهِ فيها أربعة أقوال: أحدها: أنها المساجد التي هي بيوت للصَّلوات، قاله ابن عباس، قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعَهُم أشركوا، فأمر الله عزَّ وجلَّ المسلمين أن يخلصوا له إذا دخلوا مساجدهم، والثاني: الأعضاء التي يَسجدُ عليها العبد، فيكون المعنى، لا تسجدوا عليها لغيره، والثالث: أن المراد بالمساجد هاهنا: البقاع كلُّها، فيكون المعنى: أنَّ الأرض كلها مواضع للسجود، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها، والرابع: أنَّ المساجد: السجود، فإنها جمع مسجَد، والمعنى: أَخْلِصُوا له، ولا تسجدوا لغيره.

وقال تعالى: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ)

أي: لله وحده (دَعْوَةُ الْحَقِّ)، وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف، والرجاء، والحب، والرغبة، والرهبة، والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ

مِنْ دُونِهِ) من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله، (لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ) أي: لمن يدعوها ويعبدها بشيء قليل ولا كثير لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة، فكذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة لأنهم فقراء كما أنَّ مَنْ دعوهم فقراء، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير.

قال المؤلف رحمه الله:

وتحققت أنَّ رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله، والنذر كله لله، والذبح كله لله، والاستغاثة كلها بالله، وجميع أنواع العبادة كلها لله، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكةَ والأنبياء والأولياء، يريدون شفاعتَهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالَهم.

عرفت حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرارِ به المشركون.

الشرح:

عرفنا أنَّ سبب قتال النبي ﷺ للمشركين هو أنهم أشركوا في العبادة وصرفوها لغير الله تعالى، وسبب قتالهم بيَّنه الله تعالى في قوله: (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ) والفتنة: الشرك، (وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ)، فليس المقصود بقتاهم: سفكَ دماء الكفار، وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أنْ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ تعالى، أي: الطاعة والعبادة لله وحده، فلا تُصرف العبادة إلا لله وحده، كما قال سبحانه: (فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَدًا).

ولا تصرف عبادة النذر إلا لله وحده كما قال سبحانه: (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا) فمدحَ اللهُ الموفين بالنذر، وكل أمر مدحه الشارع، أو أثنى على من قام به فهو عبادة؛ ولهذا

أمر الله تعالى بالوفاء به.

ولا تصرف عبادة الذبح إلا لله تعالى كما قال سبحانه: (قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)، وقوله: (نسكي)، أي: جميع أنساكي وهي العبادات أو الذبائح التي يتقرب بها إلى تعالى من الهدي والأضحية والعقيقة كلها لله تعالى، وفي هذا إثبات توحيد العبادة.

ولا يُستغاث إلا بالله، والاستغاثة: أنْ تطلب من الله تعالى أنْ يزيل ما فيك من شدة، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء، والاستغاثة تتضمن كمال الافتقار إلى الله سبحانه وتعالى واعتقاد كفايته، قال الله تعالى: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ)، أي: تستجيرون ربكم وتطلبون منه الغوث فاستجاب لكم.

فالمقصود بقتال المشركين: أنْ يَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ تعالى فلا تُصرف العبادة إلا لله وحده، فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة التي ذكر المصنف رحمه الله وغيرها فهو مشرك الشرك الأكبر؛ لأنه أشرك مع الله غيره، وكافر؛ لأنه جحد حقاً لله تعالى فصرفه لغيره.

والدليل على أن من دعا مع الله غيره فهو مشرك كافر قوله تعالى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) فسمَّاهم الله تعالىكافرين لدعائهم مع الله غيره.

فإقرار كفار قريش بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وتعلقهم بالملائكةَ والأنبياء والأولياء، يريدون شفاعتَهم والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحلّ دماءهم وأموالَهم.

كما دلَّ عليه حديث أبي هريرة ﷺ، عن رسول الله ﷺ قال: " أمرتُ أنْ أقاتِلِ الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك، عصموا مني دماءهم، وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله" رواه مسلم.

فإذا تأملت ما مضى وأنَّ إقرار المشركين بتوحيد الربوبية، وتعبُّدهم ببعض العبادات لم يدخلهم في الإسلام عرفت حينئذ حقيقة التوحيد الذي دعت إليه الرسل، وأبى عن الإقرارِ به المشركون، وهو توحيد الألوهية.

قال المؤلف رحمه الله:

وهذا التوحيد هو معنى قولِك: (لا إله إلا الله)، فإنَّ (الإله) عندهم هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور، سواءٌ كان ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرةً أو قبراً أو جنّياً ، لم يريدوا أنَّ (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما قدَّمْتُ لك.

وإنما يعنون (بالإله) ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد) فأتَاهُم النبيُ ﷺ يدعُوهم إلى كلمةِ التوحيدِ وهي: (لا إله إلا الله)، والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها.

الشرح:

ما ذكره المؤلف رحمه الله هنا هو في بيان حقيقة التوحيد ومعنى: (لا إله إلا الله).

فهؤلاء المشركون لا يعرفون حقيقة كلمة التوحيد.

فهذه الكلمة لها ركنان لَا تتَحَقَّق بِدُونِهَما وَهِما: النفي، وَالإِثْبَات.

فـ: **(لا إله)** نفي لاستحقاق من سوى الله للعبادة كائنًا من كان، و: **(إلا الله)** إثباتٌ لاستحقاق الله وحده للعبادة، فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْإِلَه الْحق وَمَا سواهُ من الْآلِهَة الَّتِي اتخذها الْمُشْرِكُونَ كلهَا بَاطِلَة، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢].

ومعنى هذه الكلمة إجمالًا: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، وخبر (لا) يجب

تقديره: (بحقٍّ)، أو (حقٌّ).

ولا يجوزُ تقديره بموجود؛ لأنّ هذا خلافُ الواقع، فالمعبوداتُ غيرُ الله موجودة بكثرة؛ فيلزم منه أنَّ عبادة هذه الأشياء عبادة لله، وهذا من أبطل الباطل، وهو مذهب أهل وحدة الوجود الذين هم أكفر أهل الأرض.

قال الزركشي رحمه الله: " قَول لَا إِلَه إِلَّا الله قدَّر فِيهِ الْأَكْثَرُونَ خبر (لَا) محذوفًا: فَقدَّر بَعضهم: الْوُجُود، وَبَعْضهمْ: لنا، وَبَعْضهمْ: بِحَق.

قَالَ: لِأَنَّ آلِهَةِ الْبَاطِل مَوْجُودَةٌ فِي الْوُجُود كالوثن وَالْمَقْصُودُ نفي مَا عدا إِلَه الْحق.

وَنَازع فِيهِ بَعضهم وَنفى الْحَاجة إِلَى قيدٍ مُقَدَّر محتجًا بِأَنَّ نفيَ الْمَاهِيّة من غير قيد أَعمُّ من نَفيهَا بِقَيْد.

وَالتَّقْدِيرُ أولى جَريًا على الْقَاعِدَة الْعَرَبيَّة فِي تَقْدِير الْخَبَر، وعَلى هَذَا فَالْأَحْسَن تَقْدِير الْأَخير لما ذُكر؛ ولتكون الْكَلِمَةُ جَامِعَةً لثُبُوتِ مَا يَسْتَحِيل نَفْيه وَنفي مَا يَسْتَحِيل ثُبُوتُه".

هذه هي حقيقة التوحيد، فالتوحيد الذي دعاهم إليه النبي ﷺ هو معنى قولِك: (لا إله إلا الله)، فيكون الإله المعبود هو الله وحده لا شريك له دون من سواه، فلا تصرف العبادات بأنواعها إلا له وحده.

أما (الإله) عند المشركين فهو الذي يُقصد بالدُّعَاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة،

والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، ونحو ذلك، سواءٌ كان المقصود ملكاً أو نبياً أو ولياً أو شجرةً أو قبراً أو جنّياً، لم يعتقدوا أنَّ (الإله) هو الخالق الرازق المدبر، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده كما أخبر الله عنهم بقوله: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)، وإنما يعنون (بالإله) ما يعني المشركون في زمن المؤلف رحمه الله بلفظ (السيد)، فالسيد عندهم: ما يعتقده الجهال في بعض الأشخاص الدجالين والمشعوذين الذي يلبسون على العوام بأنهم أهل كرامات وتصرف في الأمور وأنه ينبغي الالتجاء إليهم ودعاؤهم والتوسل بهم إلى الله، فالعامة يسمون هذا الدجال سيدًا، يعني: إلهًا، وهذا دليل على جهلهم بمعنى التوحيد وحقيقته.

وبسبب جهلهم بحقيقة التوحيد قال المؤلف رحمه الله: (فأتَاهُم النبيُ ﷺ يدعُوهم إلى كلمةِ التوحيدِ وهي: (لا إله إلا الله)، والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها).

وهذا فيه بيان أنَّ بعض المنتسبين للإسلام ظنوا أنَّ النطق بكلمة التوحيد يكفي في الدخول في الإسلام، وأنَّ هذه الكلمة تفيد ما يترتب عليها من أحكام دون التقييد بما دلَّتْ عليه من معنى، ولا شك أنَّ هذا جهل بمعنى كلمة التوحيد؛ فإنَّ التلفظ بها دون استكمال شروطها لا فائدة من ورائه.

وكلمة التوحيد لها شروطها فإذا عدمت الشروط أو بعضها؛ عدم المشروط، ولايلزم من وجود الشرط وجود المشروط، والشرط مقدم على المشروط.

وهذه الشروط مستنبطة من الكتاب والسنة بالاستقراء والتتبع، وهي ثمانية، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها، وهي ما يلي:

الشرط الأول: العلم بمعناها.

فلا تعتبر الشهادة إلا لمن تكلم بها عارفًا بمعناها نفيًا وإثباتًا، عاملاً بمقتضاها باطنًا وظاهرًا فلا بدَّ فيها من العلم والعمل بمدلولها.

ومن أدلة هذا الشرط:

قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[الزخرف: ٨٦]،أي: نطق بلسانه، مقرًا بقلبه، عالمًا بما شهد به، ويشترط أنْ تكون شهادتُه بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحةِ ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه.

ومن السنة: حديث عُثْمَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ " رواه مسلم.

وممن خالف في هذا الشرط: المرجئة الذين قالوا: الإيمانُ معرفةُ القلب.

الشرط الثاني: اليقين، وهو كمال العلم بها المنافي للشك والرَّيْب.

فلا بدَّ أن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة يقينًا جازمًا

لاتردد فيه ولا توقف؛ فإنَّ الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن؛ فكيف إذا دخله الشك والعياذ بالله.

ومن أدلة هذا الشرط: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥]. فَشَرَطَ تعالى في الإيمان عدم الريب، وهو الشك؛ لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني، بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك، بوجه من الوجوه.

ومن السنة: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة" رواه مسلم.

وخالف في هذا الشرط: من شكَّ في وجود الله تعالى، واستحقاقه وحده للعبادة.

الشرط الثالث: الإخلاص المنافي للشرك.

والإخلاص في اللغة: التصفية، والمقصود الإخلاص في قول لا إله إلا الله على وجه الخصوص، فلا يقصِدُ بقولها إلا وجه الله دون أدنى شائبة من الشرك، ولا شك أن هذا يستتبع ويستلزم إخلاص العبادة كلها لله وحده من الشرك كلِّه؛ لأنه هو المستحق لها دون من سواه، فلا تنفع هذه الكلمة بدون الإخلاص المنافي للشرك.

ومن أدلة هذا الشرط: قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: " أي: لا يقبل من العمل إلا ما

أخلص فيه العامل لله، وحده لا شريك له".

ومن السنة: حديث محمود بن الربيع الأنصاري ﷺ، قال رسول الله ﷺ: " فإنَّ الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله "رواه البخاري ومسلم.

وخالف في هذا الشرط: عبَّاد القبور وعامة المشركين، والمنافقون.

الشرط الرابع: الصدق المنافي للكذب المانع من النفاق.

فلا بدَّ أن يقولها صدقًا من قلبه، يواطئ قلبه لسانه، أمَّا إذا قالها بلسانه في الظاهر وهو كاذب في الباطن؛ فهذا منافق، والنفاق: هو إظهار الخير وإبطان الشرِّ عياذًا بالله من النفاق.

ومن أدلة هذا الشرط: قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١ – ٣].

قال البغوي رحمه الله: " ﴿ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ في قولهم آمنا، ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾، والله أعلم بهم قبل الاختبار، **ومعنى الآية:** فليظهرن الله الصادقين من الكاذبين حتى يوجد معلومه".

ومن السنة: حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ، ومعاذ رديفه على الرحل، قال: «يا معاذ بن جبل»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «يا معاذ»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثا، قال: " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار" رواه البخاري.

وخالف في هذا الشرط: أهلُ النفاق.

الشرط الخامس: المحبة لهذه الكلمة ولما دلت عليه والسرور بذلك.

والمحبة أمرها عظيم، فالعبادة مبنية على ثلاثة أصول: الخوف، والرجاء، والمحبة.

والمحبة الواجبة: هي التي لا يحكم لأحد بأنه مسلم إلا بالإتيان بها، وهي محبة الله محبة توجب فعل ما أوجبه عليه وألزمه به، وترك ما حرمه عليه، فإن أخلَّ بذلك كلِّه، أو بما لا يدخل الإسلام إلا به؛ فليس بمسلم، وإنْ تهاون ببعض الواجبات؛ فينقص من إيمانه على حسب ذلك.

والمحبة المستحبة: هي التي تقتضي الإتيان بما ندب إلى فعله وحث عليه؛ فلا بد من المحبة لكلمة التوحيد، ولما دلت عليه من الأوامر ونحوها، والسرور والفرح بذلك.

ومن أدلة هذا الشرط: قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في التحفة العراقية: " والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته فالمحبوب الذي لا يعظَّم ولا يُذَلُّ له لا يكون معبودًا والمعظَّم الذي لا يُحَبُّ لا يكون معبودًا ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾، فبين سبحانه ان المشركين الذين يتخذون من دون الله أندادًا وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله

فالذين آمنوا أشد حبًا لله منهم لله ولأوثانهم؛ لأنَّ المؤمنين أعلم بالله والحبُّ يتبع العلم؛ ولأنَّ المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده وأولئك جعلوا بعض حبهم له وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب ومعلوم أنَّ ذلك أفضل".

ومن السنة: حديث أنس بن مالك ﷺ، عن النبي ﷺ قال: " ثلاث مَنْ كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار" رواه البخاري ومسلم.

وخالف في هذا الشرط: الجهمية الذين قالوا: إنّ الله تعالى لايُحِب ولا يُحَبُّ.

وخالف الصوفية الذين اخترعوا مرتبة العشق المحدثة في المحبة.

وخالف مَنْ والى أعداء الشريعة، ومنه: صنيع بعض الحركات الإسلامية التجميعية.

وخالف مَنْ أبغض الشريعة وعدَّ التمسك بها رجعية وتخلفًا.

الشرط السادس: الانقياد بحقوقها.

وهي الأعمال الواجبة إخلاصًا لله وطلبًا لمرضاته.

والانقياد بحقوقها هو المحك؛ لأن كثيرًا ممن يدعي أنه يعلم معنى هذه الكلمة، وأنه مخلص ومصدق ومستيقن، إذا أُمِرَ بأمرٍ أو نُهِيَ عن شيء؛ لم ينقد، وبان بطلان دعواه؛ لأنه لو كان صادقًا ومستيقنًا ومحبًا حقيقة؛ لانقاد بحقوق هذه الكلمة ظاهرًا وباطنًا؛ إخلاصًا لله، وطلبًا لمرضاته، وخوفًا من غضبه وعقابه.

ومن أدلة هذا الشرط: قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال السعدي رحمه الله: " ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصًا له دينه ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾، في ذلك الإسلام بأنْ كان عمله مشروعا، قد اتبع فيه الرسول ﷺ ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾، أي: بالعروة التي من تمسك بها، توثق ونجا، وسلم من الهلاك، وفاز بكل خير ".

وخالف في هذا الشرط: مَنْ تَرَكَ العمل المشروع، ومنهم: المرجئة الذين حصروا الإيمان في تصديق القلب فقط ولم يعتبروا شرط الانقياد بحقوق هذه الكلمة، وَمَنْ ارتدَّ عن الإسلام عياذًا بالله تعالى.

الشرط السابع: القبول المنافي للرد.

فلا بدَّ من قبول هذه الكلمة بالقلب واللسان، فمن لم يقبلها وردَّها واستكبر عنها؛ فهو كافر؛ كما ردَّها كفار قريش عنادًا واستكبارًا ولم يقبلوها.

ومن أدلة هذا الشرط: قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥]، أي: يتكبرون عن كلمة التوحيد، ويمتنعون منها.

وخالف في هذا الشرط: مَنْ ردَّ ما دلت عليه كلمة التوحيد إما جحودًا أو استكبارًا بعد فهمه لمعنى لا إله إلا الله، كحال كفار

قريش، ومثله كفر الجحود والعناد، ومنه عدم تحكيم الشريعة، ومنه: ردُّ أخبار الآحاد التي توافرت شروط قبولها، ومنه: التعصب للمذاهب المخالفة.

الشرط الثامن: الكفر بالطاغوت.

وهو الكفر بما سوى الله تعالى، وأدخله بعضهم في الشرط الأول، وهو: العلم بمعناها نفيًا وإثباتًا، فالنفي هو: الكفر بالطاغوت.

ومن أدلة هذا الشرط: قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال السعدي رحمه الله: " فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيمانًا تامًا أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾، أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه".

وخالف في هذا الشرط: مَنْ وقع في الشرك، ومنه التعلُّق بالكهان والسحرة، والمنجِّمين، ونحوهم ممن يدعي معرفة علم الغيب، ومَنْ حكم بغير ما أنزل الله، ومَنْ توقَّف في ردّ عقائد المشركين أو صحح مذاهبهم والعياذ بالله.

وقد جُمِعَتْ هذه الشروط الثمانية في هذين البيتين:

علمٌ يَقِيْنٌ وَإِخْلَاصٌ وَصِدْقُكَ ... مَحَبَّةٍ وَانقيادٍ والقَبول لهَا
وَزِيدَ ثَامِنُهَا الْكُفْرَانُ مِنْكَ بِمَا ... سوى الإلهِ مِنَ الْأَشياء قَدْ أَلِهَا

قال المؤلف رحمه الله:

والكفار الجهال يعلمون أنَّ مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلقِ، والكفر بما يعبدُ من دون الله، والبراءة منه فإنه لما قال لهم قولوا لا إله إلا الله، قالوا : ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجابٌ﴾، فإذا عرفت أن جهال مكة يعرفون ذلك فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار، بل يظن أن ذلك التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلبِ لشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معناها، لا يخلق ولا يرزق ، إلا الله ، ولا يدبر الأمر إلا الله ، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعاني لا إله إلا الله.

الشرح:

المقصود بيان أنَّ المشركين الأوائل كانوا أعلم بمعنى كلمة التوحيد من مشركي زماننا، فالكفار كأبي جهل وأضرابه، الجهَّال: الذين هم أُمِّيُّون لا يَقْرؤون، فهم عوام، ليسوا من أهل العلم، وأَيْضاً هم أهل جاهلية في عهد النبي ﷺ يعلمون أنَّ مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق القلبي بالله عزَّ وجلَّ، والكفر بما يعبد من دونه والبراءة مما عبد من دون الله تعالى فهم يعلمون أنَّ المقصود ليس مجرد التلفظ بها، وإنما العلم بها، والعمل بمقتضاها، ولذلك لما دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد فهموا أنَّ المعنى هو المراد لا مجرد التلفظ، فجحدوها لفظًا ومعنىً، فإنه ﷺ لما قال لهم: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا

اللهُ تُفْلِحُوا" رواه أحمد في مسنده، قالوا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)، أى: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده؟ إِنَّ هَذَا الذي جاء به لَشَيْءٌ عُجَابٌ، أي: يقضي منه العجب لبطلانه وفساده، ولو كان النبي ﷺ قد طلب منهم مجرد التلفظ بهذه الكلمة لما تعجبوا من هذا الطلب، إذ أنه لفظ مجرد عن معناه.

ومشركو زماننا أقروا بها لفظًا وجحدوها معنىً، فتجد أحدهم يقولها ويأله غير الله بأنواع العبادة، بل يخلصون العبادة في الشدائد لغير الله، فهم أجهل من مشركي العرب.

ومعرفة معنى كلمة: (إله) ركنٌ أساسٌ في فهم معنى كلمة التوحيد، وبسبب الخطأ في فهم هذه الكلمة يحصل الخطأ في فهم كلمة التوحيد.

قال المعلمي رحمه الله: " الجهل بمعنى الإله يلزمه الجهل بمعنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله".

والْإِلَه في اللغة: هُوَ المألوه، أَي: المعبود، فَإِذا قَالَ العَبْد لَا إِلَه إِلَّا الله: فقد أعلنَ وجوبَ إِفْرَاد الله بِالْعبَادَة وَبطلَان عبَادَة مَا سواهُ من الْأَصْنَام والقبور والأولياء وَغَيرهم.

وإذا كان الإله هو الذي يؤلَه ويعبد، فإنَّ توحيد الألوهية هو: إفراد الله بجميع أنواع العبادة.

قال السفاريني رحمه الله: "وتوحيد الإلهية إفراده تعالى بالعبادة، والتأله له، والخضوع والذل، والحبُّ والافتقار، والتوجه إليه تعالى".

وبهذا يبطل تفسيرُ مَنْ فسَّرَ(شهادة أن لَا إِلَه إِلَّا الله)، بأنَّه: لا قادر على الاختراع إلا الله، وهو قول أكثر المتكلمين، من الأشاعرة والماتريدية، ونحوهم.

وممن فسَّره بذلك: أبو الحسن الأشعري، وعبدالقاهر البغدادي، والشهرستاني.

فهولاء جعلوا حقيقة الشرك في شرك الربوبية فقط، فقالوا: إنَّ المشرك هو الذي يدَّعي أَنَّ هناك خالقًا ورازقًا ومحييًا ومميتًا مع الله عز وجل، وحصروا الشرك في هذا الباب، فمن توجه إلى القبور – مثلًا – بالدعاء والذبح ونحوهما من أنواع العبادة دون أن يعتقد في أصحابها ثبوت وصف القدرة على الاختراع فإنه لا يكون مشركًا؛ لأنَّه لم يتخذ إلهًا مع الله تعالى.

فالشرك في الألوهية لا يرونه، فهم لا يتعرضون لتوحيد الألوهية ويفسرونه بتوحيد الربوبية، فظنوا أنه هو المطلوب من العباد، وأنَّ معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله.

وفي إبطال هذا التفسير:

قال الشيخ سليمان بن عبدالله آل الشيخ رحمه الله: " فإنْ قيل: قد تبين معنى الإله والإلهية، فما الجواب عن قول من قال: بأن معنى الإله القادر على الاختراع ونحو هذه العبارة؟ قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أنَّ هذا قول مبتدع لا يعرف أحد قاله من العلماء ولا من

أئمة اللغة، وكلام العلماء وأئمة اللغة هو معنى ما ذكرنا كما تقدم فيكون هذا القول باطلاً.

الثاني: على تقدير تسليمه، فهو تفسير باللازم للإله الحق، فإن اللازم له أن يكون خالقًا قادرًا على الاختراع، ومتى لم يكن كذلك، فليس بإله حق وإن سمي إلهًا، وليس مراده أنَّ من عرف أن الإله هو القادر على الاختراع، فقد دخل في الإسلام وأتى بتحقيق المرام من مفتاح دار السلام، فإن هذا لا يقوله أحد، لأنه يستلزم أن يكون كفار العرب مسلمين، ولو قدر أن بعض المتأخرين أرادوا ذلك فهو مخطئ يرد عليه بالدلائل السمعية والعقلية".

وقال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: " وَلَو كَانَ معنى لَا إِلَه إِلَّا الله مَا زَعمه هَؤُلَاءِ لم يكن بَين الرَّسُول ﷺ وَبَين الْمُشْركين نزاع بل كَانُوا يبادرون إِلَى إِجَابَة الرَّسُول ﷺ إِذا قَالَ لَهُم أقرُّوا بِأَن الله هُوَ الْقَادِر على الإختراع أَو أقرُّوا أَنَّ الله مَوْجُود، أَو قَالَ لَهُم تحاكموا إِلَى الشَّرِيعَة فِي الدِّمَاء وَالْأَمْوَال والحقوق وَسكت عَن الْعِبَادَة.

وَلَكِن الْقَوْم وهم أهل اللِّسَان الْعَرَبِيّ فَهموا أَنهم إِذا قَالُوا: (لَا إِلَه إِلَّا الله) فقد أقرُّوا بِبُطْلَان عبَادَة الْأَصْنَام، وَأَن هَذِه الْكَلِمَة لَيست مُجَرّد لفظ لَا معنى لَهُ.

وَلِهَذَا نفروا مِنْهَا وَقَالُوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]، كَمَا قَالَ الله عَنْهُم: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات: ٣٥ – ٣٦].

فعرفوا أَنَّ لَا إِلَه إِلَّا الله تَقْتَضِي ترك عبَادَة مَا سوى الله وإفراد الله بِالْعبَادَة، لَو قالوها على عبَادَة الْأَصْنَام لتناقضوا مَعَ أنفسهم واستمروا على عبَادَة التَّنَاقُض.

وَعبَّاد الْقُبُور الْيَوْم لَا يأنفون من هَذَا التَّنَاقُض الشنيع فهم يَقُولُونَ لَا إِلَه إِلَّا الله، ثمَّ ينقضونها بِعبَادة الْأَمْوَات والتقرب إِلَى الأضرحة بأنواع من الْعِبَادَات فتبًا لمن كَانَ أَبُو جهل وَأَبُو لَهب أعلم مِنْهُ بِمَعْنى لَا إِلَه إِلَّا الله ".

ومن المتكلمين مَنْ فسَّرَ(شهادة أن لَا إِلَه إِلَّا الله) بأنَّ الله تعالى غني عما سواه مفتقر إليه ما عداه.

جاء في متن أم البراهين المسمَّى بالعقيدة السنوسية الصغرى:

" معنى الألوهية: استغناء الإله عن كل ما سواه، وافتقارُ كلِّ ما عداه إليه؛ فمعنى لا إله إلا الله: لا مستغني عن كلِّ ما سواه ومفتقرًا إليه كلُّ من عداه إلا الله تعالى".

ولا شك أنَّ الإله الحق – وهو الله سبحانه – هو القادر على كلِّ شيء، ومن ذلك أنه القادر على اختراع الأعيان، والمستغني عن كل ما سواه والمفتقر إليه كلُّ ما عداه؛ فهذا من خصائص الإله الحق، فهو الرب وحده والإله وحده في الحقيقة، وهو اعتقاد أهل الإيمان.

غير أنَّ الذي لا يصح: تفسيرُ كلمة: الإله مطلقًا بالربِّ، أو ظنُّ أنَّ مَن اعتقد أنَّ الله هو الرب وحده فقد اعتقده الإله وحده ولا بدَّ، فهذا ظنٌ فاسد؛ فإنَّ المشركين الأولين اعتقدوا أنَّ الله هو الرب القادر الخالق وحده؛ لكنهم لم يجعلوه الإله وحده .

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله: " وهذا لازم المعنى، إذ الإله الحق لا يكون إلا قادرًا غنيًا عمّا سواه؛ وأما كون هذا هو المعنى المقصود بالوضع فليس كذلك".

قال المصنف رحمه الله: (فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الْكُفَّارِ)، كأبي جهل وأضرابه، (يَعْرِفُونَ ذَلِكَ) أي: معنى كلمة التوحيد، (فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الإِسْلاَمَ)، بل ويدَّعي الانتساب للعلم الشرعي، (وَهُوَ لا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَف جُهَّالُ الْكُفَّارِ، بَلْ يَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لِشَيءٍ مِنَ الْمَعَانِي)، ومراد المؤلف أنَّ مشركي زماننا لا يعرفون معنى كلمة التوحيد مثل ما يعرفه كفار قريش، وإنما يظنون أَيْ : يتيقنون فالظن يأتي بمعنى الرجحان ويأتي بمعنى اليقين، فهم متيقنون أنها مجرد كلمة يلفظونها بألسنتهم، مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لِشَيءٍ مِنَ الْمَعَانِي ولا يدرون أنها مشتملة على النفي والإثبات، وأنَّ معنى شهادة أن لا إله إلا الله هو: الاعتقاد الجازم أنه لا يستحقُّ العبادةَ إلا الله، والتزام ذلك والعمل به، وهذا التلفظ الْمُجَرَّد لا يُدْخِلُهُم في جملة الْمُوَحِّدين ، ولا يجعلهم من أهل التوحيد الحق.

قال المصنف رحمه الله: (وَالْحَاذِقُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا: لا يَخْلقُ، وَلا يَرْزُقُ، وَلا يُدَبِّرُ إِلاَّ اللَّهُ، فَلا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعنى لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ)، أي: الحاذق من أهل زمانه، وهو صاحب المهارة والخبرة في الشيء، ويعني بهم أهل الكلام يظنون أنَّ معناها، لا

يخلق ولا يرزق، إلا الله ، ولا يدبر الأمر إلا الله فيفسِّرُون توحيد الألوهية بالربوبية، وعليه فالشرك عند هؤلاء متعلق بالربوبية، فلا يكفر عندهم إلا مَنِ اعتقد الخلقَ والإيجاد لغير الله تعالى، فَلا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الْكُفَّارِ أعْلَمُ مِنْهُ بِمَعنى لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، فهو يتلفظ بكلمة التوحيد من غير إدراك لمعناها، وأي خيرٍ في من كان هذا حاله، وأي جهل أعظم من جهله؟

ومما احتجوا به على تفسير توحيد الألوهية بالربوبية:

الاستدلال بقوله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٢٤]، قالوا: سؤال فرعون ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؟ هو سؤال عن ماهية الرب؟ فأجابه موسى بأنَّ حقيقية الإلهية: القدرة على الاختراع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: بيان تلبيس الجهمية: " وقد ظنَّ بعض الناس أنَّ سؤال فرعون وما رب العالمين؟ هو سؤال عن ماهية الرب كالذي يسأل عن حدود الأشياء فيقول ما الإنسان ما الملك ما الجني؟ ونحو ذلك قالوا: ولما لم يكن للمسئول عنه ماهية عدل موسى عن الجواب إلى بيان ما يُعرف به، وهو قوله: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، وهذا قول قاله بعض المتأخرين وهو باطل فإن فرعون إنما استفهم استفهام إنكار وجحد لم يسأل عن ماهية رب أقر بثبوته بل كان منكرا له جاحدا ولهذا قال في تمام الكلام: ﴿ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال:

﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ [غافر: ٣٧]، فاستفهامه كان إنكارًا وجحدًا يقول ليس للعالمين رب يرسلك فمن هو هذا إنكارا له".

وقال أيضًا في كتابه درء تعارض العقل والنقل: " والإله هو بمعني المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، ليس هو الإله بمعني القادر على الخلق، فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله من المتكلمة الصفاتية، وهو الذي ينقلونه عن أبي الحسن وأتباعه، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله، فإنَّ مشركي العرب كانوا مقرين بأنَّ الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين".

قال المؤلف رحمه الله:

إذا عرفت ما قلتُ لك معرفة قلب، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨]، وعرفت دين الله الذي بعث به الرسل من أولهم إلى آخرِهم الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وعرفت ما أصبح غالب الناسِ عليه من الجهلِ بهذا؛ أفادك فائدتينِ:

الأولى: الفرح بفضلِ الله ورحمتِه كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

وأفادَك أيضًا: الخوف العظيم، فإنك إذا عرفت أنَّ الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذرُ بالجهلِ، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله، كما ظن المشركون، خصوصًا إنْ ألهمك اللهُ ما قصَّ عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم ، أنهم أتوه قائلين: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ، فحينئذ يعظم خوفُك وحرصك على ما يخلصك من هذا وأمثاله.

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله أربعة أمور إذا عرفها العبد استفاد فائدتين:

الأول: أنْ تعرف ما ذكره المؤلف من المعنى الصحيح لتوحيد الألوهية معرفة قلب، والمراد بها: ما يكون في القلب وهو العلم والفهم، لا مجرد الدعوى باللسان.

الثاني: أنْ تعرف حقيقة الشرك المنافي لتوحيد الألوهية معرفة

تفصيلية.

والشرك الأكبر ورد تفسيره في الشرع في حديث عبد الله ﷺ قال: سألت النبي ﷺ:" أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: " أن تجعل لله ندا وهو خلقك" رواه البخاري ومسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " فأما الشرك في الإلهية فهو: أنْ يَجْعَلَ لله ندًا – أي: مثلًا في عبادته أو محبته أو خوفه أو رجائه أو إنابته فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه".

والدليل على الشرك الأكبر قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾،[النساء:١١٦]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾[المائدة: ٧٢].

الثالث: أنْ تعرف دين الله تعالى الذي بعث به الرسل من أولهم إلى آخرِهم الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وهو التوحيد

الرابع: أنْ تعرف ما أصبح غالب الناسِ عليه من الجهلِ بحقيقة التوحيد والشرك.

فإذا عرفت هذه الأمور الأربعة معرفة قلبية أفادتك تلك المعرفة فائدتين:

الفائدة الأولى: الفرح بِفَضْلِ اللَّهِ الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة، وفضل تفضل الله به على عباده وَبِرَحْمَتِهِ، وهي الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبته ومعرفته.

كما قال الله تعالى: (قل بفضل الله وبرحمته فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) أي: من متاع الدنيا ولذاتها، فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها، وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب.

قال السعدي رحمه الله: (وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال تعالى عن قوم قارون له: (لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)، وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)).

الفائدة الثانية: الخوف العظيم من الشرك؛ لأنَّ الشرك يقدح في توحيد العبد، فلا بدَّ من معرفته لتجنُّبه، فمعرفة الشرك وتجنُّبه من لوازم كلمة التوحيد، فالتوحيد متضمنٌ للبراءة من الشرك كما قال الله جل وعلا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[البقرة:٢٥٦] والعروة الوثقى هي الإسلام، فلا يسمى المرء مسلمًا إلا إذا أتى بهذين الأمرين "الكفر بالطاغوت والإيمان بالله".

فإهمال معرفة الشرك وأنواعه وأحكامه وإهمال تعليمه للناس ينشأ عنه خفاء بعض مسائل الشرك، ووقوعُ الناس فيها بل ربما يقعون في

بعض الشركيات ويرونها من الحق المبين، وكيف لا يخاف العبد من الشرك وهو أعظم ذنبٍ عُصي الله جل وعلا به -لأنه تنقيص لرب العالمين- وقد رتَّب الله تعالى عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتِّبه على ذنبٍ سواه، فالنصوص الشرعية دلَّتْ على إباحة دمه وماله وعلى سبي نساء المشركين وأولادهم، وعلى عدم مغفرته من بين الذنوب إلا بالتوبة منه، وفيه محاذير عظيمة جدًا.

ومما يعصم الله به العبد من الوقوع في الشرك أن يلجأ العبد إلى الحي القيوم أن يسلِّمه من الشرك كما جاء في دعاء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: (واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام) فخاف على نفسه من الشرك، مع أنه إمام الحنفاء، وهذا يوجب الخوف الشديد من الشرك، حتى قال إبراهيم التيمي رحمه الله: (ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟

وكان من دعاء نبينا ﷺ «اللهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»، وفي رواية: «اللهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك شيئاً وأنا أعلم، وأعوذ بك أن أُشرِك بك شيئاً وأنا لا أعلم» فهذا دعاء النبي ﷺ وهذا دعاء الخليل، فعلى الإنسان أن يخاف من الشرك بجميع أنواعه وأن يستعيذ بالله منه.

ومما يدل على خطورة الشرك: أنَّ الإنسان قد يكفر بكلمة واحدة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل لا يدري عواقب ما تلفَّظ به فلا يعذرُ بالجهلِ، كالاستهزاء بِشَيْءٍ فِيْهِ ذِكْرُ اللهِ عمومًا؛ ومنه الاستهزاء

بالأذكار، وبالأذان، وبالقرآن، ومنه: تعمُّد القراءة خطأً لغير مصلحة، وتعمُّد التحريف في القرآن، أَو الاستهزاء بالرَّسُوْلِ ﷺ ويدخل في الاستهزاء به: الاستهزاء بالسنة، وكالاستهزاء بالصالحين لأجل صلاحهم وعلمهم لا لأجل أشخاصهم، فالسخرية والتهكُّم والاستهزاء بالإسلام والمسلمين وشعائر الدين كفرٌ ينافي التوحيد، والدليل قوله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُوْلُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوْضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُوْلِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُوْنَ)، فهذه الآية في المنافقين قال الله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ) يعني عمَّا قالوه من الطعن في الدين وثلْب المؤمنين بعد أن يبلغ ذلك ويُطلعك الله عليه (لَيَقُوْلُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوْضُ وَنَلْعَبُ) فهذا عُذْرُ هؤلاء "نخوض" يعني ما نقصد حقيقة الاستهزاء، "ونلعب" وقد قالوا ذلك وهم ذاهبون للجهاد في سبيل الله تعالى، فهل موطن الجهاد من مواطن الخوض واللعب والله جل وعلا يقول حاثّاً على ذكره عند القتال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾[الأنفال:٤٥](قُلْ) لهؤلاء المنافقين (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُوْلِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُوْنَ) فالاستفهام هنا للتقريع والتوبيخ، وأثبت وقوع ذلك منهم ولم يعبأ بإنكارهم لأنهم كانوا كاذبين، ولهذا لما جاءوا إلى الرسول ﷺ يعتذرون بهذه المقالة والرسول لا يزيدهم على قوله (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ).

فالاستهزاء صفة من صفات الكفَرة كما قال الله تعالى: (زُيِّنَ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[البقرة:٢١٢].

ومما يدل على خطورة الشرك: أن المرء قد يقع بكلمة الكفر فيقولها وهو مجتهد وهو يظن أنها تقربه إلى الله زلفى، كما ظن المشركون أنَّ هذه المعبودات تقربهم إلى الله زلفى وأنها ترفع حوائجهم إلى الله تعالى، وتشفع لهم عنده، مع علمهم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئًا فصرفوا لها العبادة من دون الله تعالى.

ومما يدل على أنَّ الشرك قد يقع ممن ينتسب إلى العلم كما وقع من أهل الكلام أن تعلم ما قصَّه الله تعالى عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم، أنهم أتوه قائلين: (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهةٌ)، فقد قَالُوا من جهلهم وسفههم لنبيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم (يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) أي: اشرع لنا أن نتخذ أصنامًا آلهة كما اتخذها هؤلاء، فقَالَ لهم موسى: (إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) وأي جهل أعظم مِنْ جَهْلِ مَنْ جَهِلَ ربه وخالقه وأراد أنْ يسوِّي به غيره، ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورا؟

وجاء عند الترمذي من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: «خرجنا مع النبي ﷺ) يشير إلى أهل مكة ممن إسلامه قريب إذ ذاك (إلى حنين) وهو اسم واد بشرقي مكة معروف قاتل فيه النبي ﷺ هوازن كما قال تعالى: (وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً) (ونحن حدثاء عهد بكفر) يشير إلى أهل مكة الذين

أسلموا قريبًا، فلذلك خفي عليهم هذا الشرك المذكور في الحديث بخلاف من تقدم إسلامه، (وللمشركين سدرة يعكفون عندها) عبادة لها وتعظيما وتبركًا لما كانوا يعتقدونه فيها من البركة (وينوطون بها أسلحتهم) أي: يعلقونها (يقال لها ذات أنواط فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم) أي: للمشركين ذاتُ أنواط ظنوا أن النبي ﷺ لو جعل لهم ذلك لجاز اتخاذها لحصول البركة لمن اعتقدها فيها. (فقال النبي ﷺ: الله أكبر) تعظيما لله تعالى عن أن يجعل له شريك في عبادته التي هي حقه على عباده " إنها السُّنن " بضم السين أي: الطرق التي تخالف دينه الذي شرعه تعالى لعباده. (قلتم- والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ لتركبن سنن من كان قبلكم ".

فدلَّ الحديث على أنَّ الحق قد يخفى على بعض الصالحين فيتشبه بالمشركين في التعلق بالأشجار فيقع في الشرك وهو لا يشعر.

فحينئذ يعظم خوفُك من الوقوع في الشرك وحرصك على ما يخلصك منه، ومما يدل على حرص المرء على السلامة من الشرك أن يتعلم التوحيد وما يضاده فيسأل عن الشرك مخافة الوقوع فيه.

قال المؤلف رحمه الله:

واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء، كما قال تعالى : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ [الأنعام : ١١٢]، وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ [غافر : ٨٣].

الشرح:

على المرء أن يجزم ويتيقن أنَّ الله جلَّ وعلا حكيم، واسمه الحكيم: يدل على اتصافه بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين المخلوقات، فالحكيم هو واسع العلم، والاطلاع على مبادئ الأمور، وعواقبها، واسع الحمد تام القدرة غزير الرحمة، فهو الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها في خلقه، وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال، ولا يقدح في حكمته مقال.

ومن حكمة الله تعالى البالغة: أنه لم يبعث نبيًا من الأنبياء جميعهم بتوحيد الألوهية إلا جعل له أعداء قُطَّاع طريق يؤذونهم ويصدُّون الناس عن سبيل الله تعالى بكلِّ سبيل ممكنة، كما قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ)، فهذه الآية فيها تسلية للنبي ﷺ والمعنى: كما جعلنا لك

أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه سنتنا، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل، (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا) أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء، الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلًا والباطل حقًا.

ومن حكمة الله تعالى، في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصارًا قائمين بالدعوة إليه: أنْ يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، ليتميز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى، ومن حكمته أنَّ في ذلك بيانًا للحق، وتوضيحًا له، فإنَّ الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه –حينئذ– يتبين من أدلة الحق، وشواهده الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب، التي يتنافس فيها المتنافسون، قال الله تعالى: (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض)، فيحصل بذلك ما سبق بيانه من حكم.

قال المؤلف رحمه الله: (وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وكتب وحجج، كما قال تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر : ٨٣]).

قد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة مشتملة على ذكر باطلهم وشبهاتهم وكتب محفوظة ومسطورة، وحجج يستدلون بها على دفع الخصم، وهذا فيه تنبيه إلى أن الداعية إلى الله ينبغي أن يكون على معرفة بحال من يدعوهم؛ فقد يكون المدعو صاحب باطل وشبهات كأهل الكتاب، وأهل الكلام.

ومما يدل على وجود العلم الذي لا ينفع عند أهل الباطل قول الله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ)، ومعنى: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) أي: من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل (فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) المناقض لدين الرسل، ومن المعلوم، أن فرحهم به، يدل على شدة رضاهم به، وتمسكهم، ومعاداة الحق، الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقًا، وهذا عام لجميع العلوم، التي نوقض بها، ما جاءت به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رُدَّت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة، أدلة لفظية، لا تفيد شيئًا من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله، والمعارضة لها، والمناقضة، فالله المستعان.

ومع وجود هذه الشبهات فإن الغلبة بحمد الله لأهل التوحيد والسنة فهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة، فلا وجه لالتفات الدعاة إلى الله ﷻ إلى أقوال المثبطين والمخذِّلين والمخوفين لهم بدون مسوغٍ

معتبر، فإنَّ الرسل وأتباعهم أهل الغلبة بالحُجة واللسان، كما سيأتي التنبيه على ذلك.

قال المؤلف رحمه الله:

إذا عرفت ذلك، وعرفت أنَّ الطريق إلى اللهِ لا بدَّ له من أعداء قاعدين عليه، أهلِ فصاحة وعلمٍ وحجج، فالواجب عليك أن تعلم من دينِ الله ما يصير سلاحًا تقاتل به هؤلاء الشياطين، الذين قال إمامهم ومقدَّمهم لربك عز وجل : ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ – ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٦، ١٧].

ولكن إذا أقبلت على الله وأصغيت إلى حججه وبيناته ، فلا تخف ولا تحزن، إنَّ كيد الشيطان كان ضعيفًا، والعاميُّ من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين كما قال تعالى : ﴿وإن جُندنا لهم الغالبون﴾ [الصافات : ١٧٣].

فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح.

الشرح:

إذا علم المرء ما سبق تقريره من المؤلف رحمه الله، وعلم أنَّ الطريق الموصل إلى الله تعالى قد قعد عليه قُطَّاع الطريق من أهل الباطل يصدُّون الناس عن سبيل الله تعالى بكلِّ سبيل ممكنة، فينشرون شبهاتهم، ويسعون في الافتراء على أهل الخير وتشويه سمعتهم، وعلمت أنَّ دعاة الباطل أصحابُ فصاحة، والفصاحة في اللغة هي:

الإبانة عن المعنى والإظهار له، وأنهم أصحاب علم لا ينفع وحجج باطلة كما سبق بيان ما يدل عليه، فاعلم أنَّ أعظم ما يواجه به دعاة الباطل التسلح بالعلم الشرعي، فإذا حصل ذلك فإنه متى أورد مبطلٌ شبهةً، إلا وفي أدلة الشرع، من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب تلك الشبهة الباطلة ويقمعها.

هذا هو أعظم سلاح يواجه به دعاة الشرك بأصنافهم الذين قال إمامهم في الشر ومقدَّمهم فيه وهو إبليس – لما أبلس وأيس من رحمة الله – (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ) أي: للخلق (صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) أي: لألزمن الصراط المستقيم وهو الإسلام وطريق الحق، ولأسعى غاية جهدي على صدِّ الناس عنه وعدم سلوكهم إياه.

(ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ) أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه من إدراك بعض مقصوده فيهم.

ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازمًا ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدَّق ظنه فقال: (وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)، أي: لِنِعَمِ الله ومنها: إفراده بالعبادة، فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، كما قال الله تعالى: (إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ).

وإنما نبهَنَا الله تعالى على ما قالَ وعزمَ على فِعْلِه، لنأخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا، بالطريق التي يأتي منها، ومداخله

التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك، أكمل نعمة.

فمن توكل على ربه وبذل الأسباب التي يحصل بها اندحار الباطل وأعظمُها لزوم طريق العلم الشرعي، فلا يخف ولا يحزن فإنَّ إبطال الشبهات من طريق أهل العلم يسير بحمد الله، فكيد الشيطان ضعيف كما قال الله تعالى: (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا)، والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مَكْرُهُ مهما بلغ فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

وقول المؤلف رحمه الله: (والعامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين كما قال تعالى : (وإن جُندنا لهم الغالبون) [الصافات : ١٧٣]).

المراد: أنَّ العامي قليل العلم الذي يعرف معنى كلمة التوحيد التي يجهلها أو يجحدها أهل الشرك، فهو بلا شك غالب لعلماء المشركين والله تعالى معه.

ثم إنَّ من الدلائل الدالة على وجوب إفراد الله تعالى بالألوهية دلالة الفطرة، فهذه يعلمها من لم يكن من أهل العلم.

وخلاصة هذا الدليل الفطري قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: " جماع هذا أنك أنت إذا كنت غير عالم بمصلحتك؛ ولا قادر عليها؛ ولا مريد لها كما ينبغي؛ فغيرك من الناس أولى أن لا يكون عالما بمصلحتك؛ ولا قادرًا عليها؛ ولا مريدًا لها؛ والله سبحانه هو الذي يعلم ولا تعلم؛ ويقدر ولا تقدر؛ ويعطيك من فضله

العظيم".

ونتيجة هذا كله: أنَّه لا بدَّ أن يكون هو إلهكَ ومعبودكَ.

ومن الأدلة على أنَّ العامي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين قول الله تعالى: (وإن جُندنا لهم الغالبون) فالرسل وأتباعهم أهل الغلبة بالحُجة واللسان، كما قال الله ﷻ: [وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾]، أي حزب الله وهم الرسل وأتباعهم الذين أدَّوا ما أوجب الله عليهم وعملوا بما وهبهم من العلم النافع والعمل الصالح وأصغوا إلى حجج الله وبيناته وأقبلوا على تعلم ذلك بصدق عزيمة وإخلاص نية ودعو الناس إلى ذلك، فهؤلاء لهم الغلبة بالحُجة والنُصرة في العاقبة.

وقول المؤلف رحمه الله: (وإنما الخوف على الموحِّد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح)؛ لأنه يخشى عليه أنْ يغترَّ بسماع الشبهات فيفتن في دينه، وينحرف عن التوحيد والسنة.

قال المؤلف رحمه الله:

وقد منَّ الله تعالى علينا بكتابه الذي جعلَه (تبيانًا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)، فلا يأتي صاحب باطلٍ بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها، ويبين بطلانَها، كما قال تعالى : (ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا) [الفرقان : ٣٣] قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.

الشرح:

من أعظم ما تواجه به خصومات المشركين:

إبطال شبهاتهم بنصوص القرآن الكريم، فقد قال الله تعالى في شأنه: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ).

فالقرآن الكريم تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكلُّ ما يحتاج إليه العباد، فهو مبيَّنٌ فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية، فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم، فانقطعت به حجة الظالمين وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة، فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبرِّه وطمأنينته، وبشارة لمن أطاع الله وخضع له بالتوحيد، وأذعن له بالطاعة، يبشره بجزيل ثوابه في

الآخرة، وعظيم كرامته.

فلا يأتي صاحب باطلٍ بحجة إلا وفي القرآن ما ينقضها، ويبين بطلانَها، كما قال تعالى: (ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا) [الفرقان : ٣٣].

فقوله تعالى: (وَلا يَأْتُونَكَ)، يعني: المشركين (بِمَثَلٍ) يضربونه لك في مخاصمتك وإبطال أمرك ويعارضون به الحق ويدفعون به رسالتك، (إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ) أي: أنزلنا عليك قرآنًا جامعًا للحق في معانيه مع الوضوحِ والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظُه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظًا (وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) من مَثَلهم، والتفسير: البيان والكشف.

وفي هذه الآية ردٌّ على أهل البدع ممن يرى أنَّ كثيرًا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا – على قولهم– لا يكون القرآن أحسن تفسيرًا من غيره، وإنما التفسير الأحسن –على زعمهم– تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفًا.

قال بعض المفسرين: هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة.

لأن الدين حجة على العباد إلى قيام الساعة، وهو مأخوذ من الوحي، فردُّ كلِّ باطل إنما يكون بالقرآن الكريم.

قال الإمام أحمد رحمه الله: (لو تدبَّر إنسانٌ القرآن كان فيه ما يردُّ على كلِّ مبتدعٍ وبدعته).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في درء تعارض العقل والنقل: (فالقرآن قد دلَّ على جميع المعاني التي تنازع الناس فيها دقيقها وجليلها كما قال الشعبي: ما ابتدع أحد بدعه إلا وفي كتاب الله بيانها، وقال مسروق: ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن قصر عنه).

قال المؤلف رحمه الله:

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا، فنقولُ: جوابُ أهلِ الباطلِ من طريقين ، مُجْمَلٍ ، ومفَصلٍ.

الشرح:

قال المؤلف رحمه الله: (وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله في كتابه جوابًا لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا) هنا شرع الشيخ رحمه الله في بيان موضوع الكتاب، وهو إبطال الشبهات التي وقع فيها بعض المشركين في زمن المؤلف وردِّها، بذكر قواعد وأصول مأخوذة من النصوص الشرعية وهذه الشبهات خلاصة ما أورد على دعوة الإمام المجدد رحمه الله.

والجواب عن ما احتجَّ به المشركون على تقرير شركهم في زمن المؤلف رحمه الله يكون بجوابين: مجمل ومفصَّل.

أما المجمل، وهو: الذي يقابِلُ المفصَّل ويصلح أنْ يكون جوبًا عامًّاً إذ ليس فيه تفصيل، ولا يختصُّ بشبهة بعينها، وهذا يكون بمعرفة أمرين:

الأول: أنْ يعرفَ المرءُ القول الحق، الذي خالفه أهل الشرك، حتى يعرف ضدَّه بعد ذلك، فإذا عَلِمَ القولَ الحق علمَ ضدَّه وهو فساد قول المشركين.

الثاني: أنْ يَعرفَ المرءُ أنَّ فهم السلف للنصوص الشرعية يخالف

فهمهم، فالحق لايخرج عن أقوال السلف، فإذا علم ذلك عرف أنَّ أقاويل المشركين ليست بشيء لمخالفتها فهم السلف.

وأما الجواب المفصَّلُ: بأن يَعْرِفَ المرء الطرق المفصَّلة الدالة على فساد شبهات أهل الباطل بما نصبه الشرعُ من الأدلة على بيان الحق، وهذا يكون بالجواب على كلِّ مسألة خالف فيها أهل الشرك بالتفصيل.

والذي يَعْرِفُ فسادَ شبهات المشركين بالتفصيل هم العلماء، الذين معهم آلة الرد على كلِّ مبطل، وعمدتهم في إبطال الأقاويل المخالفة: القرآنُ الكريم والسنة النبوية الصحيحة وفق فهم السلف، وما عليه إجماع العلماء المعتبرين.

قال ابن القيم رحمه الله: "فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان، كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده، والطريق الموصل إلى الهلكة، فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك، وعرفوها مفصَّلة، ثم جاء الرسول ﷺ فأخرجهم من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد فعرفوا مقدار ما نالوه، ومقدار ما كانوا فيه، فإنَّ الضدَّ يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها، فاللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما ".

قال المؤلف رحمه الله:

أما المجمل: فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله تعالى: ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله﴾ [آل عمران : ٧] وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منهُ فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم » رواه البخاري ومسلم.

الشرح:

لما بيَّن المؤلف أنَّ الجواب على شبهات المشركين يكون من طريقين: مجمل ومفصَّل، شرع في بيان كيفية الجواب المجمل، وهو: الذي يقابِلُ المفصَّل ويصلح أنْ يكون جوبًا عامًّاً إذ ليس فيه تفصيل، ولا يختصُّ بشبهة بعينها، وهذا الجواب المجمل لا يُستهانُ به، فشأنه عظيم وفائدته كبيرة لمن عقلها، والعقلُ: هو فهم الكلام وربطه في الذهن والعقل، والجواب المجمل قد يكون كافيًا في إبطال شبهة المخالف، وعليه فلا حاجة للدخول مع المخالف في الأجوبة التفصيلية إنْ فهم الجواب المجمل وسلَّم به.

وإدراك الجواب المجمل يكون بفهم أربعة أمور:

الأمر الأول: أنْ تعلم أنَّ آيات القرآن الكريم فيها المحكم والمتشابه.

والمحكم: هو ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى بيان، وكانت الدلالة منه لا تحتمل إلا معنى واحدًا.

والمتشابه: ما احتاج إلى بيان، وكانت فيه الدلالة غير واضحة عند بعضهم، بمعنى أنها تحتمل أكثر من معنى.

ورجَّح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنَّ التشابه أمر نسبي، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره، ولكن ثمَّ آياتٌ محكمات لاتشابه فيها على أحد، وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة.

الأمر الثاني: أنْ تعلم أنَّ الله تعالى أمرنا بالرجوع إلى المحكم، فقال سبحانه: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ)، أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال، (هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ)، أي: أصله الذي يرجع إليه كلُّ متشابه، وهي معظمه وأكثره، فيقتضي ذلك أن لا يفسر المتشابه بما يخالف المحكم، بل يرد المتشابه إلى أم الكتاب، وهو المحكم ويفسر به.

الأمر الثالث: أنْ تعلم أنَّ الله تعالى ذمَّ الذين يتبعون المتشابه، ويفسرونه بخلاف المعنى الذي دل عليه المحكم، فهذه الآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله قال الطبري في تفسيرها: (وهذه الآية وإن كانت نزلت فيمن ذكرنا أنها نزلت فيه من أهل الشرك، فإنه معنيٌّ بها كلُّ مبتدع في دين الله بدعةً فمال قلبه إليها، تأويلًا منه لبعض مُتشابه آي القرآن).

فمقاصد المتبعين للمتشابه فاسدة، كما قال الله تعالى في شأنهم: (فأما الذين في قلوبهم زيغ)، ومرض، وانحراف، لسوء قصدهم، (فيتبعون ما تشابه منه ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ) أي: طلبًا للفتنة،

وتحريفا لكتابه، وتأويلا له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا، وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف- فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأن كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف، فلعلمهم أن المحكمات، معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم، وناقص المعرفة، فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكمًا.

وأما قوله سبحانه: (وما يعلم تأويله إلا الله) فللمفسرين في الوقوف على (الله) من قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها (والراسخون في العلم) وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على (إلا الله) لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرُّضٌ لما لا يمكن معرفته، فيجب علينا الوقوف على ما حُدَّ لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضًا لما لا يعني، وتكلفًا لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكلون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون.

وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف: (الراسخون) على (الله) فيكون الله تعالى قد أخبر أنَّ تفسير

المتشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضًا، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون (كل) من المحكم والمتشابه (من عند ربنا)، وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقينا أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك.

الأمر الرابع: أنْ تعلمَ أنَّ النبي ﷺ حذر من الذين يتبعون المتشابه.

كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:(فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ؛ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ؛ فَاحْذَرُوهُمْ)، فالذين يتبعون ما تشابه من القرآن الكريم ومثلها السنة فهي وحيٌ، ولا يردون النصوص المتشابهة إلى المحكم، ولو ردوها إلى المحكم لاتضحتْ وتبينَتْ، ولكنهم يأخذون بالمتشابه ويفسرونه بما يريدون من الاحتمالات فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ، أي: سماهم أهلَ الزيغ، فاحذروهم؛ أي: لا تجالسوهم ولا تكلموهم.

فإذا فهمتَ هذه الأمور الأربعة وعقلتها: فإنك تستطيع إلزام صاحب الشبهات الطالب للحق بأنْ يحتج بالمحكم ويدع عنه طريق أهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه.

قال المؤلف رحمه الله:

مثالُ ذلك : إذا قال لك بعض المشركين: ألا إنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون و إنَّ الشفاعة حق، أو إنَّ الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلامًا للنبي ﷺ يستدل به على شيء باطله، وأنت لا تفهم معنى الكلامِ الذي ذكره، فجاوبه بقولك: إنَّ الله ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابهَ، وما ذكرته لك من أنَّ الله ذكر أنَّ المشركين يقرون بالربوبية، وأنَّ كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله هذا أمر محكم بيِّن لا يقدر أحد أن يغير معناه، وما ذكرت لي أيها المشرك من القرآن أو كلام النبي ﷺ لا أعرف معناه ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله عزّ وجلْ.

وهذا جواب سديد ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله، فلا تستهن به، فإنه كما قال تعالى: ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلاقها إلا ذو حظ عظيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله مثالًا للجواب المجمل الذي يستطيع أنْ يَرُدَّ به العاميُّ إذا ابتُليَ بمن يعرض عليه بعض شبهات المشركين التي احتجوا بها على شركهم بالمتشابه.

فإذا احتج مشرك على تقرير شركه بقول الله تعالى: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فيما يستقبلونه

مما أمامهم من المخاوف والأهوال، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما أسلفوا، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهذا دليل على أنَّ للأولياء والصالحين مكانة وجاهًا عند الله تعالى ونحن نسأل الله بجاههم ومكانتهم، وهذا ليس بشرك.

أو احتج مشرك على تقرير شركه بالنصوص الواردة في شفاعة الصالحين يوم القيامة، ومنها: حديث أبي سعيد الخدري ﷺ في حديث الرؤية الطويل، وفيه: "فيقول الله عز وجل: شَفَعَت الملائكة، وشَفَع النبيُّون، وشَفَع المؤمنون..." رواه البخاري ومسلم، وغيره من النصوص الدالة على شفاعة الصالحين في الآخرة.

فقالوا: نحن لا نريد من الأولياء والصالحين قضاء الحاجات وتفريج الكربات من دون الله، ولكن نريد منهم أنْ يشفعوا لنا عند الله لصلاحهم ومكانتهم عند الله تعالى فنحن نريد من الله بجاههم وشفاعتهم والشفاعة حق.

أو احتج مشرك على تقرير شركه بأن الأنبياء لهم جاه ومنزلة عند الله تعالى، فهم يُسألون ويُدعون ليسألوا لمن ليس له الجاه عند الله تعالى.

أو احتج مشرك على تقرير شركه بكلام للنبي ﷺ يستدل به على شيء من باطله وهو تقرير جواز الاستشفاع بالصالحين وسؤالهم من دون الله تعالى؛ لأنَّ صاحب الشرك يؤول النصوص الشرعية المخالفة لعقيدته ليصدَّ الناس عن توحيد الله تعالى.

قال المؤلف رحمه الله: (وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره)

وما الذي يريد به بسبب جهلك بالعلم التفصيلي، لكن عندك نصوص محكمة قد فهمت معانيها تحذِّر من الشرك، ففهمك لها تصل به إلى أنَّ ما قاله المشرك في تقرير شركه قول باطل.

والجواب المجمل من العاميِّ عن احتجاج المشركين بالمتشابه على شركهم يكون بأمرين:

الأمر الأول: أنْ تقول للمشرك: إنَّ الله تعالى ذكر في كتابه أنَّ الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبَّعون المتشابه، وأنت تركت النصوص المحكمة الدالة على وجوب صرف العبادة لله وحده، والمحذِّرة من الشرك بالله تعالى، وأخذت بالنصوص الواردة في فضل الأولياء والصالحين وإثبات شفاعتهم في الآخرة، والنصوص الواردة في أن الأنبياء لهم جاه عند الله وفسَّرتها بما يخالف المحكم الدال على تحريم الإشراك بالله تعالى.

وجاوبه أيضًا بما ذكره المؤلف رحمه الله لك من أنَّ المشركين يُقرُّون بالربوبية وأنَّ الله كفَّرهم بتعلُّقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء مع قولهم: (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)، فهذا أمرٌ محكمَ بيَّن لا يقدر أحد أنْ يغيِّر معناه، وما ذكرتَه لي أيها المشرك من نصوص القرآن الكريم أو كلام النبي ﷺ في تقرير شركك فإني لا أعرف معناه من جهته دلالته على جواز التعلق الشركي بالصالحين والأولياء، فاسأل عنه أهل العلم لكني أعلم أنَّ كلامك من المتشابه لمخالفته للمحكم.

الأمر الثاني: أنْ تقول للمشرك: أنا أقطع أنَّ كلام الله لا يتناقض، وأنَّ كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله عز وجل، فكيف تأتي بمتشابه

تستدل به على شركك، مع ورود النصوص المحكمة الدالة على المنع من صرف العبادة لغير الله تعالى

قال المؤلف رحمه الله: (وهذا جواب جيد سديد) هذا الجواب جيدٌ سديد؛ لأنه مأخوذ من الوحي، فالشرع أمر بالعمل بالمحكم وردِّ المتشابه إليه؛ وسديد؛ لأنه مُسْكِتٌ للخَصْمِ، وقد قال الله تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ)، فكلُّ باطل قيلَ، وجودل به، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه، فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه (فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) أي: مضمحل، فانٍ، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل، شبهة، عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو ردِّ حق، إلا وفي أدلة الله، من القواطع العقلية والنقلية، ما يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد.

قال المؤلف رحمه الله: (ولكن لا يفهمه إلا من وفَّقه الله تعالى فلا تَستَهِن به، فإنه كما قال تعالى: [وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ])،

المراد: أنَّ الجواب المجمل لا يفهمه إلا مَنْ وفقه الله تعالى لمعرفة الحق، وسَلِمَ من فتن الشبهات، فلا يُستهان به، فإنه من طرق دفع الباطل.

واستدل المؤلف على ذلك بقول الله تعالى: (وَمَا يُلَقَّاهَا)، أي: الدفع بالتي هي أحسن: (إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) فدفع شبهات المشركين بالجواب المجمل هو من الدفع بالتي

هي أحسن، وما يُلَقَّى ذلك إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ، فمن وفِّق للجواب بهذا فقد وفقت لأمر عظيم.

قال المؤلف رحمه الله:

وأما الجواب المفصل: فإنَّ أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دينِ الرسلِ يصدون بها الناس عنه، منها قولهم: نحنُ لا نشرك بالله، بل نشهد أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلا الله وحده لا شركَ له، وأن محمداً ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً عن عبد القادر أو غيرِه، ولكن أنا مذنب والصالحون لهم جاه عند الله، وأطلب من الله بهم.

فجاوِبه بما تقدم وهو أن الذين قاتلَهم رسول الله ﷺ مقرون بما ذكرت، ومقرّون أن أوثانَهم لا تدبر شيئاً، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة، واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابِه ووضَّحَه.

الشرح:

شرعَ المؤلف رحمه الله في ذكر الأجوبة المفصَّلة على الاعتراضات التي عرضت للمشركين فمنعتهم من التمسك بالحقِّ، بل وصدِّ الناس عنه.

ومعنى الجواب المفصَّلُ: أن يَعْرِفَ المرء الطرق المفصَّلة الدالة على فساد شبهات أهل الباطل بما نصبه الشرعُ من الأدلة على بيان الحق، وهذا يكون بالجواب على كلِّ شبهةٍ بعينها بجوابٍ يخصُّها.

والذي يَعْرِفُ فسادَ الشُّبه والردَّ عليها هم العلماء، الذين معهم آلة الرد على كلِّ مبطل، وعمدتهم في إبطال الأقاويل المخالفة القرآنُ الكريم والسنة وفق فهم السلف.

والمشركون لهم شبه باطلة احتجوا بها على صحة ما وقعوا فيه من الشرك الذي لا يعدُّونه شركًا، وجميع حججهم باطلة كما قال الله تعالى في شأنهم: (والَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ).

فأخبر الله تعالى أنَّ الَّذِينَ (يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة (مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) أي: من بعد ما استجابَ لله تعالى أولو الألباب والعقول، لما بُيِّنَ لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبيَّن (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ) أي: باطلة مدفوعة (عِنْدَ رَبِّهِمْ) لأنها مشتملة على ردِّ الحق وكلُّ ما خالف الحق، فهو باطل، (وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله تعالى وبيناته وتكذيبها. (وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كلِّ مجادل للحق بالباطل.

وقبل ذكر هذه الشبهة والجواب عنها، فمن المناسب التنبيه على شبهةٍ تفرَّعت عنها الشبهات التي ذكرها المؤلف رحمه الله فقد ادَّعى بعضُ أهل البدع نفيَ وقوع الشرك في هذه الأمة، واحتجوا بالنصوص الدالة على فضل هذه الأمة، وأنَّ أمرها باقٍ إلى قيام الساعة، وبالنصوص الدالة على حفظ عموم الأمة من الشرك، أو عدم الخوف على الأمة منه، وبالنصوص الدالة على فضل من قال لا إله إلا الله ونجاته بها، أو التي تحذر من تكفيره أو رميه بالشرك.

وأجيب: بأنَّ هذه النصوص التي احتجوا بها ليست في محل النزاع،

فمحل النزاع: هل يقع الشرك في الأمة، وليس في مسألة وقوعِ الأمةِ كلِّها في الشرك.

فأهل الحق يقولون: قد وردت نصوص كثيرة دالة على وقوع طوائف من الأمة في الضلال الموصل إلى حدِّ الكفر، والشركِ المخرج من ملَّة الإسلام.

منها: حديث أبي سعيد ﷺ، أن النبي ﷺ، قال: «لتتَّبعُنَّ سنن من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى قال: «فمن» رواه البخاري ومسلم.

وحديثُ ثوبان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل مِنْ أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي» رواه الترمذي.

وهذه النصوص وما شاكلها لا تعارض حديث جابرﷺ، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « إنَّ الشيطان قد أيس أنْ يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم» رواه مسلم.

فالمراد: أن الشيطان هو الذي أيس بنفسه وقد أخطأ يأسه حيث خالفه الواقع، أو: أن المقصود أيس من الردة الكاملة من جميع المسلمين، أو أنه لا يطمع أن يعبده المؤمنون في جزيرة العرب فمن كان بهذه الصفة فلا مطمع فيه، أو أن المقصود بالمصلين هم الصحابة رضي الله عنهم.

والمؤلف رحمه الله ذكر أشهر الشبهات التي استدل بها المشركون على صحة فعلهم، ومن ذلك: دعواهم أنَّ فعلهم ليس من الشرك بالله، فهم يزعمون أنهم يقرُّون بتوحيد الربوبية، فيشهدون أنه لا يخلقُ ولا يرزقُ ولا ينفعُ ولا يضرُ إلا الله وحدَه لا شركَ لهُ ، وأن محمدًا ﷺ لا يملكُ لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً عن عبد القادر الجيلاني، (ت: ٥٦١هـ) أو غيرِه ممن له جاه ومنزلة وصلاح، ويقول الواحد منهم: هو مذنبٌ والمذنبُ غيرُ مؤهَّل إلى الطلب من الله تعالى مباشرة، والصالحونَ لهم جاهٌ عندَ الله تعالى، وأطلبُ من الله بهم، فادَّعوا أنهم يسألون الله تعالى بجاههم ومكانتهم؛ ليشفعوا لهم عند الله تعالى، وأنَّ هذا ليس بشرك، فهم جعلوا الأموات وسائط بينهم وبين الله عز وجل، وهذا كفر بإجماع العلماء.

وهذا الشبهة أثيرت في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله، ومن أشهر من أثارها وصنَّف في تقريرها محمد بن عفالق الأحسائي، (ت: ١١٦٤هـ)، وله رسالة سمَّاها: (تهكم المقلدين لمدعي تجديد الدين)، وقرَّر فيها أنَّ المرء لا يَكْفر إلا إذا اعتقد في الأولياء أنهم يضرون أو ينفعون، وتبناها محمد بن عبد المجيد، مالكي المذهب ألَّف رسالة سمَّاها: (الرد على بعض المبتدعين من الطائفة الوهابية)، وأورد هذه الشبهة في رسالته.

وهذه الشبهة والدعوة إليها من أسباب وقوع الشرك قبل دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله وفي أثناء دعوته.

فعلماء السوء المنتسبون للعلم من أسباب انتشار البدع بين الناس

فبسبب رواج شبهاتهم تَعَلَّقَ المخالفون بعبادة أصحاب القبور، بشبهة خلاصتها: أنهم قد أدركوا في أزمانهم من ذوي الفضل علمًا وعملًا من كان يتحرى الدعاء عند القبور أو العكوف عليها، وفيهم من كان بارعًا في العلم، فكيف يخالَف هؤلاء؟.

والعبرة ليست بفعل هؤلاء فإنه لم يُنقل فعل ذلك عن أحد من أصحاب القرون المفضلة، الذين أثنى عليهم الرسول ﷺ بقوله: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، مع شدة المقتضي فيهم لذلك لو كان فيه فضيلة، فعدم أمرهم وفعلهم لذلك مع قوة المقتضي لو كان فيه فضل يوجب القطع بأن لا فضل فيه.

وأما مَنْ بعد هؤلاء، فالمنقول عنهم من التعلق الشركي بالقبور فقد **قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في اقتضاء الصرط المستقيم**: (إما أن يكون كذبًا على صاحبه، وإما أنْ يكون المنقول من هذه الحكايات عن مجهول لا يعرف، وقد يكون صاحبه قاله أو فعله، باجتهاد يخطئ ويصيب، أو قاله بقيود وشروط كثيرة على وجه لا محذور فيه، فحُرِّف النقل عنه، وسائر هذه الحجج دائرة بين نقل لا يجوز إثبات الشرع به، أو قياس لا يجوز استحباب العبادات بمثله).

وفي زمن الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله كان لعلماء السوء دور بارز في نشر هذه الشبهات الشركية، فتعلَّق جمع من الناس بالقبور وأصحابها.

قال حسين بنُ غنَّام في كتابه روضة الأفكار والأفهام وهو يصوِّر

لنا الحالة التي وصلت إليها نجد قبل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: " فقد كان في بلدان نجد من ذلك أمر عظيم وهول مقيم، كان الناس يقصدون قبر زيد بن الخطاب في الجبيلة ويدعونه لتفريج الكرب، وكشف النوب ، وقضاء الحاجات، وكانوا يزعمون أنَّ في قرية في الدرعية قبور بعض الصحابة فعكفوا على عبادتها وصار أهلها أعظمَ في صدورهم من الله خوفًا، ورهبة فتقربوا إليهم، وهم يعنون أنهم أسرع إلى تلبية حوائجهم من الله، وكانوا يأتون إلى شعب "غبيرا" من المنكر ما لا يعهد مثله يزعمون أن فيه قبر ضرار بن الأزور".

والجواب عن شبهة هؤلاء سبق ذكرهُ فالذين قاتلَهم رسول الله ﷺ مقرُّون بالربوبية، وأنَّ أوثانَهم لا تدبر شيئًا، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة ، فاقرأ على صاحب هذه الشبهة ما ذكر الله في كتابِه ووضحه مِنْ أنَّ هذا هو اعتقاد المشركين، من مثل قول الله تعالى:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى (إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)، وقول الله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)، وغيرها من النصوص الواردة في هذا الباب التي سبق ذكرها.

وبهذا يتبيَّن أنَّ شبهة هؤلاء هي بعينها شبهة المشركين الأوائل، وأنَّ إقرارهم بالربوبية لم يدخلهم في الإسلام حتى يقروا بتوحيد الألوهية.

فتوحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الإلهية والعبادة، فهو منه كالمقدمة

من النتيجة، فإنه إذا علم أنه سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته كانت العبادة حقه الذي لا ينبغي إلا له فإنه لا يصلح أن يعبد إلا من كان ربًا خالقًا مالكًا مدبرًا وما دام ذلك له وجبَ أنْ يكون هو المعبودَ وحده الذي لا يجوز أن يكون لأحد معه شركة في شيء من صور العبادة كلها ولهذا جرت سنة القرآن على سوق آيات الربوبية ثم الخلوص منها إلى الدعوة إلى توحيد الألوهية فيجعل الأولى برهانًا على الثانية كما في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١]، وكما في قوله: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل: ٦٠ - ٦٢].

قال المؤلف رحمه الله:

فإن قال: إنَّ هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام؟ أم كيف تجعلون الأنبياء أصنامًا؟ فجاوبه بما تقدم: فإنَه إذا أقرَ أن الكفار يشهدون بالربوبية كلِّها لله، وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة، ولكن إذا أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر، فاذكر لهُ أن الكفار منهم من يدعو الأصنام ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أيهم أقرب﴾ [الإسراء : ٥٧] ويدعون عيسى ابن مريم وأمه ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ما المسيحُ ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أني يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم ﴾ [المائدة : ٧٥، ٧٦].

واذكر له قوله تعالى: ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون – قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [سبأ: ٤٠ ، ٤١]، وقوله تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ﴾ [المائدة : ١١٦].

فقل له: أعرفت أن الله كفَّر من قصد الأصنام، وكفَّر أيضًا من قصد

الصالحين، وقاتلهم رسول الله ﷺ.

الشرح:

إنْ قال صاحبُ الشبهة: إنَّ هذه الآيات من مثل قول الله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

وقول الله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ).

وغيرها من النصوص الواردة في هذا الباب نزلت في من يعبد الأصنام، فالمشركون الذين بُعث إليهم النبي ﷺ كانوا يعبدون الأصنام المصوَّرة على صور الرجال الصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، فكيف تقيسون عبادة الصالحين الذين لهم جاه عند الله تعالى مثل الملائكة، والأنبياء والأولياء، على عبادة الأصنام والأشجار والأحجار؟

فصاحبُ هذه الشبهة يريد حصر عبادة غير الله بعبادة الأصنام وحدها، فيُفرِّق بين عبادة من يتعلق بالأصنام، وبين من يتوجه للصالحين بالعبادة لأجل جاههم وصلاحهم ليشفعوا له عند الله تعالى.

وممن تبنى هذه الشبهة: الشيخ سليمان بن عبد الوهاب رحمه الله، أخو الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وقد كان قاضيًا في حريملاء، ألفَّ كتابه: (الصواعق الإلهية)، ومما قرَّره فيه أنَّ الآيات التي

نزلت في المشركين لا تقاس ولا تطبَّق على المسلمين، فألَّف الشيخ محمد بن عبد الوهاب كتابه: (مفيد المستفيد) في الرد على شبهه أخيه سليمان.

وقد رجع الشيخ سليمان إلى الحق وتركَ ما وقع فيه من مخالفات كما ذكر ذلك الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب آل الشيخ (ت: ١٢٩٣هـ) في كتابه: مصباح الظلام في الرد على من كذب الشيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل الإيمان والإسلام.

قال الشيخ عبداللطيف رحمه الله: (وقد مَنَّ الله وقت تسويد هذا بالوقوف على رسالة لسليمان فيها البشارة برجوعه عن مذهبه الأول، وأنه قد استبان له التوحيد والإيمان، وندم على ما فرَّط من الضلال والطغيان، وهذا نصها) ثم ذكر نصَّ رسالته.

وأصحاب الأهواء في زماننا ينشرون كلام الشيخ سليمان السابق ليُنفِّروا من دعوة الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وأنَّ أقرب الناس إليه مخالفٌ له، فاحذروا هذه الشبهة فإنَّ نسبة الأقوال لأصحابها إنما تكون بآخر ما قالوه لا بما تراجع عنه.

وصاحبُ هذه الشبهة: جاوبه بما تقدَّم من أنَّ عبادات الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ على اختلاف أنواعهم متنوعة، وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة، وأنهم مقرون ومعترفون بألسنتهم، ومعتقدون بقلوبهم، بربوبية الله تعالى وأن ذلك الإقرار لم يدخلهم في الإسلام؛

لأنهم لم يأتوا بتوحيد الألوهية، فالشرك صوره متنوعة فلا وجه لحصره في نوع واحد.

فإذا أراد صاحبُ هذه الشبهة التفريقَ بين فعل المشركين الأوائل وفعل المخالفين في زمانه بما ذُكر، فاذكر لهُ أنَّ الكفار الأوائل عباداتهم متنوعة:

فمنهم من يدعو الأصنام.

والدليل على أنَّ هناك من يعبد الأصنام وفيها اللات والعزى قول الله تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى).

ومنهم من يعبد الأولياء لأجلِ صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا لهم.

والدليل على أنَّ هناك من يعبد الصالحين والحكم ببطلان هذه العبادة: قول الله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ).

ومنهم من يعبد عيسى عليه الصلاة والسلام وأمَّه لأجلِ صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا لهم.

والدليل على أن هناك من يعبدهم: قوله تعالى: (ما المسيحُ ابن مريم إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أني يؤفكون – قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم).

وقوله تعالى: (وإِذْ قَالَ الله يَا عِيسَى بن مَرْيَمَ أَأَنْت قُلْت لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُون اللَّه قَالَ سُبْحَانك مَا يَكُون لِي أَنْ أَقُول

مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْت قُلْتُه فَقَدْ عَلِمْته تَعْلَم مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَم مَا فِي نَفْسك إنك أنت علام الغيوب).

ومنهم من يعبد الملائكة فيقول: يا ملائكة اشفعوا لي عند الله.

والدليل على أن هناك من يعبدهم، ونهي الله تعالى عن ذلك قول الله تعالى: (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا).

وقوله تعالى: (ويوم يحشرهم جميعًا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون – قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)[سبأ: ٤٠ ، ٤١]،

فهذه النصوص تدلُّ على أنَّ الله تعالى كفَّر من قصد الأصنام، وكفَّر أيضًا من قصد الصالحين، وقاتلهم رسول الله ﷺ، ولم يفرّق بين مشركٍ وآخر، فالشرك الأكبر ورد تفسيره في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ:" أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: " أن تجعل لله ندا وهو خلقك" رواه البخاري ومسلم.

فالشرك: جعل شريك لله تعالى فيما يستحقه ويختص به من العبادة الباطنة والظاهرة، كالحب والخضوع، والتعظيم والخوف، والرجاء والإنابة، والتوكُّل والنسك والطاعة ... ونحو ذلك من العبادات، فمن أشرك مع الله غيره في شيء من ذلك فهو مشرك بربّه، قد عدل به سواه، وجعل له ندًا من خلقه.

فكلُّ من وقع في نوعٍ من أنواعه سواءً أكان الشرك في الدعاء أو الشفاعة أو النية والإرادة والقصد أو الطاعة أو المحبة أو الخوف فهو

مشرك حلال الدم والمال يقاتله السلطان لا غيرُه، فلا يجوز حصر الشرك في نوعٍ من أنواعه، وبهذا يتبين بطلان قول صاحب الشبهة وعدم معرفته بحقيقة الشرك الأكبر.

قال المؤلف رحمه الله:

فإن قال: الكفار يريدون منهم، وأنا أشهد أنَّ الله هو النافع الضار المدبر، لا أريد إلا منه، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن اقصدهم أرجو من الله شفاعتهم.

فالجواب: أن هذا قول الكفارِ سواء بسواء؛ فاقرأ عليه قولَه تعالى: (أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) [الزمر : ٣] وقوله تعالى: (وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ) [يونس : ١٨].

واعلم أن هذه الشبهَ الثلاث هي أكبر ما عندهم، فإذا عرفت أنَّ الله وضحها لنا في كتابِه ، وفهِمتها فهمًا جيدًا فما بعدها أيسر منها.

الشرح:

إذا قال صاحبُ الشبهة: الكفارُ يريدونَ من معبوداتهم التي يعبدونها: النفعَ والضُّرَّ، فهم يطلبون منها قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وأنا أشهد أنَّ الله هو النافعُ الضارُ المدبرُ، لا أريدُ إلا منه، والصالحونَ ليسَ لهم من الأمر شيءٌ، ولكنْ اقصدُهُمُ أرجو من الله شفاعتَهم، لما لهم من جاه ومكانة عند الله تعالى ونحن نسأل الله بجاههم ومكانتهم، وهذا ليس بشرك.

وقولُ صاحب هذه الشبهة دليل على جهله من وجوه:

فقد نسبَ لكفار قريش أنهم يريدونَ من معبوداتهم التي يعبدونها:

النفعَ والضُّرَّ.

وكفار قريش يقولون مادعونا العقلاء من المدعوين كعيسى ابن مريم عليه السلام وأمه وتوجهنا إلى غير العقلاء كالأصنام والأحجار والأشجار وغيرها إلا لطلب القربة والشفاعة فالمشركون يقولون: إنهم لا يعتقدون في الموتى الاستقلال بالتأثير، ولا الخلق والإيجاد، بل يعتقدون أنَّ الاستقلال بالتأثير وإيجاد النفع لله تعالى، ويعتقدون فيهم أنهم أسباب ووسائل ووسائط، وأنهم شفعاء لهم عند الله تعالى لما لهم من المنزلة الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى، فجعلوا الموتى واسطة بين العباد ورب العباد.

وصاحبُ هذه الشبهة جاهل بحقيقة الشرك فكيف يقول: (لا أريد إلا منه) أي: من الله، وهو يتوجه إلى غير الله من الأموات الذين لا يملكون شيئًا.

وقوله دليل على جهله بأنواع الشرك، ومنه تفريقه بين شرك المتأخرين وبين شرك كفار قريش، مع أنَّ الشبهة التي أوقعتهم في الشرك واحدة، وهي وقوعهم في شرك الشفاعة، **فمن أنواع الشرك**: شرك الشفاعة، ويقع هذا الشرك إذا اتخذ العبد من دون الله أندادًا، فصرفَ لهم نوعًا من أنواع العبادة، أو كلها، وتوجه بهم، وتقرب بعبادتهم إلى الله، زاعمًا أنَّ معبوداته هذه تشفع له عند الله، وتقربه منه زلفى.

فقوله هو قول كفار قريش سواء بسواء، فالمشركون قصدهم من التعلق بمعبوداتهم من دون الله تعالى شيء واحد وهو طلب

الشفاعة إلى الله تعالى والدليل على ذلك:

قول الله تعالى حكاية عن المشركين في اعتذارهم عن عبادة الأصنام: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ) أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)، أي: لترفع حوائجنا لله، وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها، لا تخلق، ولا ترزق، ولا تملك من الأمر شيئًا، ففعل المتأخرين هو عين فعل المشركين سواء بسواء.

وقوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

فهؤلاء المشركون يعبدون مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ قولًا خاليًا من البرهان: (هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم.

وفعلهم هذا من الشفاعة المنفية التي نفاها القرآن الكريم وأنكر وقوعها.

وهي: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والدليل على أن هذه الشفاعة منفية: قول الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فقوله: ﴿ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ ﴾ أي: ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.

والقبوريون غلو في الشفاعة فأثبتوا الشفاعة المنفية، وجعلوها طريقًا

إلى تقرير أعمالهم الشركية، كما دلَّت عليه الآيتان السابقتان.

قال المؤلف رحمه الله: (واعلم أنَّ هذهِ الشبهَ الثلاثَ هي أكبر ما عندهم)، وهي: دعواهم أنَّ من أقرَّ بتوحيد الربوبية ولم يقصد من الصالحين إلا الجاه والشفاعة فليس بمشرك، وحصرُهُم عبادة غير الله تعالى في الأصنام دون الصالحين، ودعواهم أنَّ طلبَ الشفاعة من الأولياء والصالحين ليس بشرك، فالكفار يريدون المنفعة ودفع المضرة ، وهم يريدون منهم الشفاعة فقط.

فهذ الشبه التي يحتجون بها على باطلهم حجج باطلة معارِضة للوحي ولدعوة الأنبياء والمرسلين، وقد قال الله تعالى في شأنِ أمثال هؤلاء: (والَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ).

فأخبر الله تعالى أنَّ الَّذِينَ (يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ) بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة (مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) أي: من بعد ما استجابَ لله تعالى أولو الألباب والعقول، لما بُيِّنَ لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبيَّن (حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ) أي: باطلة مدفوعة (عِنْدَ رَبِّهِمْ) لأنها مشتملة على ردِّ الحق وكلُّ ما خالف الحق، فهو باطل، (وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله تعالى وبيناته وتكذيبها. (وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كلِّ مجادل للحق بالباطل.

ومع ذلك فإنه ينبغي الاعتناء بمعرفة هذه الشبهات الثلاث وفهمهما

فهمًا جيدًا مع أجوبتها؛ لأنَّ هذه الشبه هي أكبر ما عندهم، فإذا فهمتها واتَّضحتْ لك ووضح إبطالها، فما سيأتي من شبهٍ فإنها أكثر وضوحًا، لأنها متفرعة عن هذه الشبهات الثلاث ومبنية عليها.

قال المؤلف رحمه الله:

فإنْ قال: أنا لا أعبد إلا الله، وهذا الالتجاء إليهِم، ودعاؤهم ليس بعبادة.

فقل له أنت تقر أنَّ الله فرض عليك إخلاص العبادة، وهو حقه عليك؟.

فإذا قال: نعم، فقل له: بيِّن لي هذا الذي فرض الله عليك، وهو إخلاص العبادة لله وهو حقه عليك، فإنَّه لا يعرف العبادةَ ولا أنواعها، فبيِّنها له بقولك: قال الله تعالى: (ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً) [الأعراف : ٥٥] فإذا أعلمته بهذا، فقل له: علمتَ هذا عبادة لله؟ فلا بدَّ أنْ يقول: نعم، والدعاء مخ العبادة.

فقل له: إذا أقررت أنها عبادة، ودعوت الله ليلًا ونهارًا خوفًا وطمعًا، ثم دعوت في تلك الحاجة نبيًا أو غيره، هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلا بدَّ أن يقول: نعم.

فقل له: فإذا عملت بقول الله تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)[الكوثر:٢]، فإذا أطعت الله ونحرت له، هل هذه عبادة؟ فلا بدَّ أن يقول: نعم، فقلْ له: إذا نحرتَ لمخلوقٍ نبيٍّ أو جنيٍّ أو غيرِهما، هل أشركت في هذه العبادة غير الله؟ فلا بدَّ أن يقول: نعم.

الشرح:

هذه الشبهة خلاصتها: أنَّ هؤلاء الجهَّال الذين يتعلَّقون بالصالحين يزعمون إفراد الله تعالى بالعبادة، وينفون عبادة الصالحين، مع أنهم يدعونهم

ويستعيذون ويستغيثون ويستعينون بهم ويذبحون لهم، وينذرون لهم، ونحو ذلك، فجحدوا أنَّ ما يقومون به شرك، فزعموا أنَّ هذا الالتجاء ليس بشرك، ودعواهم أنَّ الالتجاء إلى الموتى من الصالحين ليس بعبادة لهم باطل فالالتجاء من معاني الاستعاذة، والاستعاذة من العبادات التي أمر الله تعالى بصرفها له في قوله: (قل أعوذ بربِّ الناس)، فلا تكون إلا بالله تعالى، فالاستعاذة هي الاعتصام والتحرز والالتجاء إلى الله وحده والالتصاق بجنابه مِنْ شرِّ كل ذي شرٍّ.

ودعواهم أنَّ دعاء الموتى من الصالحين ليس بعبادة باطل، فالدعاء حقيقته: إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل، وإضافة الجود، والكرم إليه، فلا يجوز صرفه إلا لله وحده لا شريك له، قال الله تعالى: ﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤]، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.

فالدعاء باعتبار معناه ينقسم إلى قسمين:

الأول: دعاء العبادة وهو: دعاء الله امتثالًا لأمره فإنه سبحانه أمر عباده بالدعاء.

فمتى دعوت الله سبحانه وتعالى ممتثلاً أمره فإنَّ دعاءك عبادة قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر: ٦٠]، فإذا دعوته امتثلت أمره وإذا امتثلت أمره تكون قد عبدته، وكذلك عموم العمل الصالح يسمى دعاء؛ لأنَّ العبد يطلب بالعمل الصالح الثواب من الله

تعالى.

الثاني: دعاء المسألة وهو: دعاؤه سبحانه وتعالى بجلب المنفعة ودفع المضرة.

فكلا النوعين عبادة لله سبحانه وتعالى، وهما متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة مستلزم لدعاء العبادة، فمن دعا الله سبحانه وتعالى طالبًا جلب النفع ودفع الضر وهو في حال دعائه ممتثلًا أمره سبحانه وتعالى فإنه يكون قد اجتمع في حقه دعاء العبادة ودعاء المسألة.

وبسبب وقوعهم في هذه الشبهة: فإنهم ذهبوا إلى جواز الاستغاثة بالنبي ﷺ، بحجة أنَّ الاستغاثة به ليست عبادة لله تعالى، فالشرك عند هؤلاء متعلق بالربوبية، فلا يكفر عندهم إلا إذا اعتقد المرءُ الخلقَ والإيجاد لغير الله تعالى، أما الاستغاثة بالنبي ﷺ، فإنها لا تحمل هذا الاعتقاد وإنما لكونه شفيعًا عند الله تعالى.

فهم لا يتعرضون لتوحيد الألوهية ويفسِّرونه بتوحيد الربوبية، فظنوا أنه هو المطلوب من العباد، وأنَّ معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله.

وهذه الشبهة يستصحبونها في كلِّ المخالفات الشركية التي يقعون فيها، وقد تقدم الكلام في هذه المسألة، وبيان بطلانها، وأنه لو كان معنى كلمة التوحيد مثل ما ذكروا لم يكن بَين الرَّسُول ﷺ وَبَين الْمُشْركين نزاع بل كَانُوا يبادرون إِلَى إِجَابَة الرَّسُول ﷺ إِذا قَالَ لَهُم أقرُّوا بِأَن الله هُوَ الْقَادِر على الاختراع.

وأما الاستغاثة بغير النبي ﷺ فعمدتهم فيها: الاحتجاج بالنصوص الواردة في سماع الأموات، وهذه النصوص ليست محل اتفاق بين أهل العلم، من جهة الاستدلال بها، وعلى فرض التسليم بصحة الاستدلال بها، فأين النصوص الدالة على جواز الاستغاثة بالأموات وطلب الحاجات منهم؟ بل النصوص مانعة من ذلك، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥ – ٦].

ومن وقع في هذه الشبهة فجاوبه بجوابين:

الجواب الأول: قل له مجيبًا: أنت تقرُّ أنَّ الله فرض عليك إخلاص العبادة لله وهو حقه عليك؟ فسيقول نعم؛ لأنَّه لا يمكنه جحد ذلك، فالأمر بالعبادة من المعلوم من الدين بالضرورة، كما قال الله تعالى: ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ١٤]، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.

فإذا قال: نعم، أقرُّ أنَّ الله فرضَ عليَّ إخلاص العبادة له وحده لا شريك له.

فقل له: بيِّن لي معنى هذا الذي فرض الله عليك وهو إخلاص العبادة لله وحده وهو حقه عليك، كما دلَّ عليه حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (حقُّ الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا) متفق عليه، فإنَّه لا يعرف حقيقة

العبادة، بدليل أنه يزعم إفراد الله تعالى بالعبادة، وينفي عبادة الصالحين، ثم يصرف العبادة لهم من دون الله تعالى فجحد أنَّ ما يقوم به شرك، وزعم أنَّ هذا الالتجاء ليس بشرك، ولا يعرف أنواع العبادة المتعلقة بقول القلب، وبقول اللسان، وبعمل القلب، وبأعمال الجوارح.

فبيّن له أنَّ العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من العقائد وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، فكلُّ ما يقرب إلى الله من الأفعال والتروك فهو عبادة، وبيّن له أنَّ العبادة ومنها الدعاء شرط قبولها: الإخلاص بأنْ يكون العمل خالصا لوجه الله الكريم، كما قال الله تعالى:[وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء] [البينة: من الآية٥]، فالأعمال لا تقوم إلا بالنيات، فلا ثواب على عمل شرعي إلا إذا قصد به وجه الله سبحانه وتعالى، كما دلَّ عليه حديث عمرَ بنَ الخطابِ رضي الله عنه، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: (إِنَّما الأَعمال بالنيَّاتِ (وفي روايةٍ: العملُ بالنيَّةِ) رواه البخاري ومسلم، فالنية تتحكم في العمل، وتقلبه إلى عبادة.

فبيّنْ له أنَّ الدعاء نوع من أنواع العبادة: كما قال الله تعالى: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) [الأعراف: ٥٥]، فأمر الله تعالى بصرف الدعاء له وحده دون من سواه، والدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فسمَّى الله تعالى الدعاء عبادة وأمر بدعائه (تَضَرُّعًا)، أي: إلحاحًا في المسألة، ودُؤُبًا في العبادة، (وَخُفْيَةً) أي: لا جهرًا وعلانية، يخاف منه الرياء، بل خفية وإخلاصًا لله تعالى.

فإذا أعلمته بمعنى هذه الآية، وبوجوب إفراد الله تعالى بالدعاء، فقل له: هل علمت هذا الدعاء عبادة لله؟ فلا بدَّ أن يقول إنْ كان منصفًا وعاقلًا: نعم الدعاء عبادة بل الدعاء مخ العبادة، ومخ الشيء: لبُّه وخلاصته وما يقوم به ومعناه: أنَّ العبادة لا تقوم إلا بالدعاء كما أنَّ الإنسان لا يقوم إلا بالمخ؛ لدلاته على الإقبال على الله تعالى والإعراض عما سواه.

وقد جاء في الحديث: "الدعاء مخ العبادة" وهو حديث ضعيف أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه ومعناه صحيح، وهو يدل على منزلة الدعاء من بين أنواع العبادة ويشهد له حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "الدعاء هو العبادة" أخرجه الترمذي وأبو داود وابن ماجه.

فقل له: إذا أقررت أنها أي: عبادة الدعاء عبادة، ودعوتَ الله ليلًا ونهارًا خوفًا من عقابه وطمعًا، في ثوابه ثم دعوت في تلك الحاجة نبيًا أو غيره، هل أشركت في عبادة الله غيره؟ فلا بدَّ أن يقول: نعم دعاء غير الله شرك إن كان منصفًا وعاقلًا، فيُقال له: إذا كنتَ قد سمَّيتَ دعاء الله عبادة، فما تصرفه إلى الصالحين من دعائهم فهو شرك، والشرك جاءت الرسل عليهم الصلاة والسلام بالنهي عنه، والدعوة إلى تركه وبهذا تنكشف شبهته.

فإذا سلَّم بذلك فأكِّد له بطلان تعلُّقه بدعاء الصالحين بذكر مثال آخر واضحٍ يدل على بطلان التعلق الشركي عمومًا بالأولياء ومنه الذبح لهم ليتبيَّن له أنَّ صرف العبادة للأولياء ليس خاصًّا بصرف عبادة الدعاء وحده لهم، فقل له:

إذا عملت بقول الله تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ)[الكوثر:٢]، فأطعت الله تعالى ونحرت له، هل هذه عبادة؟ فلا بدَّ أن يقول: نعم، لدلالة الآية على وجوب صرف عبادة الذبح لله تعالى، فقلْ له: إذا نحرتَ لمخلوقٍ نبيٍّ أو جنيٍّ أو غيرِهما بأنواع القرابين، هل أشركت في عبادة النحر غير الله؟ فلا بدَّ أن يقول: نعم؛ لأنه لا يمكنه جحد النصوص الدالة على وجوب صرف عبادة الذبح لله تعالى، وبهذا تلزمه بصرف جميع أنواع العبادة لله وحده دون من سواه، وإن كابر فهو لا يعرف حقيقة الشرك الذي حرَّم الله الجنة على من وقع فيه.

قال المؤلف رحمه الله:

وقل له أيضًا: المشركون الذين نزل فيهم القرآن، هل كانوا يعبدون الملائكةَ والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بدَّ أن يقول: نعم.

فقل له: وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبحِ والالتجاء ونحو ذلك، وإلا فهُمْ مقرون أنهم عبيده وتحت قهرِ الله، وأنَّ الله هو الذي يدبر الأمر، ولكن دعوهم، والتجئوا إليهم للجاه والشفاعة، وهذا ظاهر جدًا.

الشرح:

هذا هو الجواب الثاني في الرد على من نفى عن نفسه عبادة الصالحين مع دعائه لهم، فيُقال له: المشركون الذين نزل القرآن الكريم فيهم بإلزامهم باعترافهم بتوحيد الربوبية ليقروا بتوحيد الألوهية الذي ينكرونه، وفي بيان حال الآلهة التي يعبدونها من دون الله، في الدنيا والآخرة، بصفة تقرِّر عدم استحقاقها للعبادة، وفي تذكيرهم بما يكمن في نفوسهم من التوحيد وأنه لا حجة ولا برهان لهم في شركهم، وغير ذلك من الآيات الدالة على صرفهم العبادة لغير الله تعالى، فقل له: هؤلاء المشركون هل كانوا يعبدون الملائكة والصالحين واللات وغير ذلك؟ فلا بدَّ أنْ يقول: نعم؛ لأنه لا ينكر الأدلة الدالة على ذلك ومنها قول الله تعالى: (وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا)، وقول الله تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ).

ثم قال رحمه الله: (فقل له: وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء والذبح والالتجاء ونحو ذلك؟ وإلا فهم مقرون أنهم عبيد الله وتحت قهره وأنَّ الله هو الذي يدبر الأمر) **والمراد:** تقريره أنه لم تكن عبادتهم إلا في صرف هذه العبادات ونحوها لغير الله، ولم يكن شركهم في توحيد الربوبية، فهم مقرُّون به كما سبق بيانُ ذلك.

ثم قال رحمه الله: (ولكن دعوهم والتجئوا إليهم للجاه والشفاعة، وهذا ظاهر جدًا)،

فقد دلَّت النصوص على أنَّ المشركين يقولون في الجواب على من أنكر عليهم: ما دعونا الملائكة وعيسى بنَ مريم عليه الصلاة والسلام وأمَّه والصالحين وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة، كما قال الله تعالى عنهم: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)، وقال تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى).

فالمشركون يزعمون: إنهم لا يعتقدون في الموتى الاستقلال بالتأثير، ولا الخلق والإيجاد، بل يعتقدون أنَّ الاستقلال بالتأثير وإيجاد النفع لله تعالى، ويعتقدون فيهم أنهم أسبابٌ ووسائل ووسائط، وأنهم شفعاء لهم عند الله تعالى لما لهم من المنزلة الرفيعة عند الله سبحانه وتعالى، فجعلوا الموتى واسطة بين العباد ورب العباد.

وهذا الجواب كافٍ في الرد على هذا المِلبّس وكشف شبهته.

ومن المناسب التنبيه إلى أشهر شبهتين من الشبه التي يذكرها بعضُ القبوريين في إبطال أنَّ المشركين كانوا يعترفون بربوبية الله:

الشبهة الأولى: استدلالهم بقول الله تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم) [الأنعام: ١٠٨].

فقد استدل بعضهم بهذه الآية على أنَّ المشركين لو كانوا يعتقدون حقًا أنَّ الله تعالى هو المتفرد بالربوبية لما نُهيَ عن سبِّ آلهتهم خشية أنْ يسبُّوا الله تعالى.

والجواب: أنَّ صنيعهم هذا من العمل بالمتشابه وترك المحكم، فالنصوص صريحة في إقرارهم بالربوبية، من مثل قول الله تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)، وغيرها من النصوص في هذا الباب.

ثم إنَّ المراد من سبهم الله: سبُّهم رسول الله ﷺ بحيث يفضي سبهم إلى الله من دون قصد وعلم، يدل عليه قوله تعالى في الآية نفسها: (عدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ)؛ لأنهم كانوا يقرون بعظمة الله، وإنما عبدوا آلهتهم لتكون شفعاء لهم عنده.

وبعضُ المشركين كانوا يسبون الله صريحًا وقت الغضب فالحمية الجاهلية تحملهم على ذلك لا لأجل التدين والاعتقاد، فمثل هذا إن صدر عن شخص لا يصدر منه تدينًا واعتقادًا، بل فسقًا وحمية وغضبًا.

الشبهة الثانية: استدلالهم على أنَّ المشركين لم يكونوا مقرّين بالربوبية بقول الله تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يحكمون) [الأنعام:

.[١٣٦

وهذه الآية حجة عليهم وهي دالة على إقرارهم بالربوبية وعلى أنهم كانوا يعبدون الله تعالى لكن يشركون معه غيره.

والمعنى: أَنَّ كُفَّار مَكَّة جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ، أي: خَلَقَ مِنْ الْحَرْث، وهو الزَّرْع وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا يَصْرِفُونَهُ إِلَى الضِّيفَان وَالْمَسَاكِين وَلِشُرَكَائِهِمْ نَصِيبًا يَصْرِفُونَهُ إِلَى سَدَنَتهَا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا، فَكَانُوا إِذَا سَقَطَ فِي نَصِيب اللَّه شَيْء مِنْ نَصِيبهَا الْتَقَطُوهُ أَوْ فِي نَصِيبهَا شَيْء مِنْ نَصِيبه تَرَكُوهُ وَقَالُوا إِنَّ اللَّه غَنِيّ عَنْ هَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: (فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِل إِلَى اللَّه)، أَيْ لِجِهَتِهِ، (وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِل إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ)، أي: بِئْسَ (مَا يَحْكُمُونَ)، أي: بئس حُكْمهمْ هذا.

قال المؤلف رحمه الله:

فإن قال أتنكر شفاعةَ رسولِ الله ﷺ وتتبرأُ منها؟

فقل له: لا أُنكرها ولا أتبرأ منها، بل هو ﷺ الشافع المشفَّع، وأرجو شفاعته، ولكن الشفاعة كلها لله تعالى كما قال تعالى: (قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا) [الزمر: ٤٤]، ولا تكون إلا من بعد إذن الله كما قال تعالى: (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) [البقرة: ٢٥٥] ولا يشفع في أحد إلا من بعد أن يأذن الله فيه كما قال عز وجل: (وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى)[الأنبياء : ٢٨].

وهو لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى:(وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ) [آل عمران: ٨٥]، فإذا كانت الشفاعة كلُها لله، ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد؛ تبيَّنَ لك: أنَّ الشفاعة كلَّها لله، وأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفِّعه فيَّ، وأمثال هذا.

الشرح:

هذه الشبهةُ مفادها: دعوى المشبِّه أنَّ مَنْ أنكرَ جواز التعلُّق بالأولياء والصالحين فقد أنكر شفاعة الرسول ﷺ، وشفاعة الصالحين من الملائكة والنبيين والمؤمنين.

وسبق بيان أنَّ مما احتجَّ به المشركون على تقرير شركهم: الاستدلال بالنصوص الواردة في شفاعة الصالحين يوم القيامة، فقالوا: نحن لا

نريد من الأولياء والصالحين قضاء الحاجات وتفريج الكربات من دون الله تعالى، ولكن نريد منهم أنْ يشفعوا لنا عند الله لصلاحهم ومكانتهم عند الله تعالى فنحن نريد من الله بجاههم وشفاعتهم والشفاعة حق، واللهُ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ مِنْ أَسْبَابِ حُصُوْلِ الشَّفَاعَةِ أَنْ تُطْلَبَ مِنْ غَيْرِهِ تَعَالَى، بَلْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ شِرْكَ المشْرِكِيْنَ الأَوَائِلِ كَانَ فِي طَلَبِ الشَّفَاعَةِ مِنَ الأَوْلِيَاءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: (وَيَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُوْلُوْنَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُوْنَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ) [يُوْنُس:١٨].

وشبهتهم القياس الفاسد، وهو: قياس الخالق جل وعلا على المخلوق في باب الوسائط، قالوا: إنَّ المخلوق إذا أراد أن يقضي بعض حاجاته فإنه يحتاج إلى شافع يشفع له، وقد لا تُقضى هذه الحاجة إلا بوجود الشافع فقالوا: كذلك الله جل وعلا يحتاج إلى شافع عنده وهم الموتى الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[فاطر:٢٢] فلجأوا إليهم واتخذوهم وسطاء بينهم وبين الله تعالى.

فإن قال هذا المشبِّهُ: أتنكر شفاعةَ رسولِ الله ﷺ وتبرأُ منها؟ فقل له: لا أُنكرها ولا أتبرأ منها، بل هو ﷺ الشافع المشفَّع، وأرجو شفاعته، فأهل السنة يثبتون كلَّ ما أثبتته النصوص من أنواع الشفاعة التي أُخْتُصَّ بها النبي ﷺ وهي ما يلي:

النوع الأول: الشفاعة العظمى.

وهي شفاعة الموقف التي اختص بها محمد ﷺ، وهي تخليص الناس من الكرب في انتظار الفصل إلى القضاء، وتعجيل الحساب والتمييز بين فريقي الجنة والنار، ويدخل فيها جميع الخلائق وهي المقام المحمود الذي وعده به ربه عز وجل بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾، وسئل عنها قال:« هي الشفاعة» رواه الترمذي.

والشفاعة العظمى يثبتها أهل السنة وأهل البدع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: " قد ثبت بالسنة المستفيضة بل المتواترة **واتفاق الأمة**: أنَّ نبينا ﷺ الشافعُ المشفَّعُ وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة وأنَّ الناس يستشفعون به يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم، وأنه يشفع لهم".

النوع الثاني: الشفاعة في استفتاح باب الجنة.

وهي مما اختص به نبينا محمد ﷺ.

ومن أدلتها: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: " آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك " رواه مسلم.

النوع الثالث: شفاعته ﷺ في أقوام استحقوا النار أن لايدخلوها.

وهذه الشفاعة حصل في ثبوتها خلاف بين أهل العلم.

قال ابن القيم رحمه الله: " وهذا النوع لم أقف إلى الآن على حديث يدل عليه.

وأكثر الأحاديث صريحة في أنَّ الشفاعة في أهل التوحيد من أرباب الكبائر إنما تكون بعد دخولهم النار، وأما أن يشفع فيهم قبل الدخول فلا يدخلون، فلم أظفر فيه بنص".

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: " **الشفاعة فيمن استحق النار أن لا يدخلها**، وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: " ما من مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعهم الله فيه" رواه مسلم، فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفعهم الله في ذلك.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات أهل الجنة في الجنة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وأما شفاعته ودعاؤه للمؤمنين فهي نافعةٌ في الدنيا والدين باتفاق المسلمين، وكذلك شفاعته للمؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها بين المسلمين، وقد قيل إن بعض أهل البدعة ينكرها".

النوع الخامس: الشَّفَاعَةُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَمَّنْ يَسْتَحِقُّهُ.

وهي مما اختص به نبينا محمد ﷺ، كَشَفَاعَتِهِ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُ عَذَابُهُ، وهذه الشفاعة لَا تَنْفَعُهُ فِي الْخُرُوجِ مِنَ النَّارِ، كَمَا تَنْفَعُ عُصَاةَ الْمُوَحِّدِينَ، الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

ومن أدلتها: حديث العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟

قَالَ: نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ" رواه البخاري ومسلم.

النوع السادس: الشَّفَاعَةُ فِي أَقْوَامٍ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

وهي مختصة بفضلاء المؤمنين في الموقف، وإدخالهم الجنة بغير حساب، وتعجيلهم إلى منازلهم.

ومن أدلتها: حديث أبي هريرة ﷺ وفيه: قال: قال رسول الله ﷺ: " فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا، لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سل تعطه، واشفع تشفع فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب" رواه البخاري ومسلم.

النوع السابع: شفاعته ﷺ في أهل الكبائر من أمته ممن دخل النار أن يخرج منها.

ومن النصوص الواردة في إثباتها:

حديث أنسِ بن مالكٍ ﷺ، عن النبي ﷺ قال: "شَفاعتي لأهْلِ الكبائِرِ من أُمَّتي" رواه أبو داود والترمذي.

وحديث عِمْرَان بن حُصَيْنٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ" رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " أما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم وأنكرها كثير من أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والزيدية".

وإنفاذ الوعيد في الآخرة بنى عليه الخوارج والمعتزلة إنكار الشفاعة في أهل الكبائر؛ لأنَّ وعد الله تعالى ووعيده يجب أن يقع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " وعند الخوارج والمعتزلة أنه لا يشفع لأهل الكبائر؛ لأنَّ الكبائر عندهم لا تغفر ولا يخرجون من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا بغيرها ".

ومما يُردُّ به عليهم: أنَّ الشفاعة لأصحاب الكبائر مجمَعٌ عليها، وأنَّ أحاديث الشفاعة في أهل الكبائر ثابتة ومتواترة فلا وجه لإنكارها.

وقل لهذا المشبِّه: أنا لا أنكر ولا أتبرأُ من شفاعة الصالحين من الملائكة والنبيين والمؤمنين، فقد دلَّت النصوص على إثبات الشفاعة لهم، كما جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ في حديث الرؤية الطويل، وفيه: " فيقول الله عز وجل: شَفَعَت الملائكة، وشَفَع النبيُّون، وشَفَع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيَقبِض قبضةً من النار، فيُخرِج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حُمَمًا، فيُلقِيهم في نهرٍ في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيَخرُجون كما تخرج الحبَّة في حَمِيل السيل" رواه البخاري ومسلم.

وقل له أيضًا: الشفاعة المثبتة التي أثبت القرآن الكريم تحقق

وقوعها في الآخرة هي: التي تطلب من الله والشافع مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمشفوعُ له من رضي الله عنه قوله وعمله بعد الإذن كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالى، كما قال الله سبحانه: (قل لله الشفاعة جميعًا)، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم مَنْ يشاء مِنْ عباده أذنَ لمن أراد أنْ يكرمه مِنْ عباده أنْ يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن.

فالشفاعة لا تكون مقبولة عند الله تعالى إلا بثلاثة شروط:

الشرط الأول: إذن الله تعالى للشافع أنْ يشفع.

وقد دلَّ على هذا الشرط قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾[سبأ: ٢٣].

الشرط الثاني: رضا الله عن المشفوع له أن يشفع فيه.

وقد دلَّ على هذا الشرط قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

والمشفوع فيه لا بدَّ أن يكون من أهل التوحيد، كما قال سبحانه: (ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يُقبل منه).

ويستثنى من هذا الشرط نوعان من الشفاعة هما:

الشفاعة العظمى الخاصة بالنبي ﷺ في أهل المحشر، وتكون عامة لجميع الناس، وتكون لمن رضي الله عنهم، ومَن لم يرضَ عنهم.

وشفاعة النبي ﷺ في عمه أبي طالب شفاعة تخفيف من العذاب، لا شفاعة نجاة فهي مستثناة من هذا الشرط، وهي خاصة بالنبي ﷺ حيث إنَّ عمه في ضحضاح من نار، وعليه نعلان يغلي منهما دماغه، وأنه لأهون أهل النار عذابًا، والنبي ﷺ قال: " ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار" رواه مسلم.

الشرط الثالث: الرضا عن الشافع.

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩].

فإذا كانت الشفاعة كلُها لله، لا تُطلَبُ من غيره ولا تكون إلا من بعد إذنه، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد كما دلَّت عليه النصوص السابقة؛ تبين لك: أن الشفاعة كلَّها لله، وأطلبها منه فأقول: اللهم لا تحرمني شفاعته، اللهم شفِّعه في، وأمثال هذا من المعاني الدالة على طلب الشفاعة من الله تعالى، وهذا هو غاية التوحيد، فالخير كله بيد الله تعالى، فليُسأل وحده دون مَنْ سواه.

وينبغي للمسلم أنْ يعلمَ الأسباب الشرعية التي تُنال بها الشفاعة ويحذر من مسالك أهل البدع الذي يطلبون الشفاعة من غير طريقها الشرعي.

ومن الأسباب التي تُنال بها الشفاعة ما يلي:

أولًا: الموت على التوحيد، ودليله: حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه» رواه البخاري.

ثانيًا: الصيام والقرآن الكريم، ودليله: حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم فشفعني فيه فيشفعان» رواه أحمد.

ثالثًا: سُكْن المدينة والصبر على شدَّتها والموت بها كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا يصبر على لأواء المدينة وشدَّتها أحدٌ من أمتي إلا كُنت له شفيعاً يوم القيامة أو شهيداً» رواه مسلم.

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها؛ فإني أشفع لمن يموت بها» رواه الترمذي.

رابعًا: الصلاة على النبي ﷺ وطلب الوسيلة له، فقد جاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى عليَّ صلاةً صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا لي الوسيلة؛ فإنها منزلةٌ في الجنة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة» رواه مسلم.

وجاء في حديث جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته.

حلَّت له شفاعتي يوم القيامة» رواه البخاري.

وهناك صنف من الناس لا تُقبل شفاعته مع أنه من أهل التوحيد وهو المكثر من اللعن، جاء في حديث أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن اللعّانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة» رواه مسلم.

قال المؤلف رحمه الله:

فإن قال: النبيُّ ﷺ أُعطي الشفاعة وأنا أطلبه مما أعطاه الله.

فالجواب: أن الله أعطاه الشفاعةَ ونهاك عن هذا فقال تعالى : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً)[الجن : ١٨]، فإذا كنت تدعو الله أن يشفّع نبيه فيك فأطعه في قوله : (فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً).

وأيضًا: فإنَّ الشفاعة أعطَيها غير النبي ﷺ فصحَّ أن الملائكةَ يشفعون، والأولياء يشفعون، والأفراط يشفعون.

أتقول: إنَّ الله أعطاهم الشفاعةَ فأطلبها منهم ؟

فإن قلت هذا، رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكرها الله في كتابِه، وإن قلت: لا، بطل قولك: أعطاه الله الشفاعةَ وأنا أطلبه مما أعطاه الله.

الشرح:

إذا قال المشبِّه: إنَّ النبي ﷺ، أعطي الشفاعة فأنا أسأله مما أعطاه الله تعالى وهذا ليس بشرك.

فيُقال: أما كون النبي ﷺ أعطي الشفاعة في الآخرة فهذا حقٌّ وسبق ذكر ما يدل على ذلك.

وأما الاستشفاع به في حال حياته فيجوز، ويدخل فيه طلب الدعاء منه، لحديث جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه، وفيه: (فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ وَبِكَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى) رواه أبو داود.

وهذه اللفظة اشتملت على جملة ممنوعة وأخرى مشروعة، فقوله في

الحديث: « فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاَللَّهِ عَلَيْكَ»، يعني نجعل الله واسطة إليك، فجعل مرتبة الله دون مرتبة النبي ﷺ؛ فهذه اللفظة التي وقع فيها الأعرابي لا يجوز قولها ولهذا أنكرها عليه النبي ﷺ.

وقال: «وَيحَكَ عَلَى اللهِ»، وهذه اللفظة لا شيء فيها، فالمراد طلب دعاء النبي ﷺ لربّه أن يسقيهم.

فالاستشفاع بالنبي ﷺ المراد به: طلب دعائه وهذا جائزٌ في حياته، وأما بعد وفاته فلا يجوز وليس خاصاً بالنبي ﷺ بل كل حيٍ حاضر يُرجى أن يُستجاب له فلا بأس أن يُطلب منه الدعاء، وأما الميّت فإنما يُشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وبعد دفنه، وأما دعاؤه فلم يُشرع، بل جاء في ذلك الوعيد الشديد والنهي الأكيد.

فكلُّ ميّتٍ أو غائبٍ لا يسمع ولا يستجيب، ولا ينفع ولا يضر فدعاؤه شرك، وهذا هو الفرق بين طلب الدعاء من الحي ودعاء الأموات في باب الاستشفاع.

فعلى المسلم أن يحذر من التوسل إلى الله تعالى بوسيلة لم ترد في الكتاب والسنة، وهذا هو التوسل الممنوع، وهو على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التوسل إلى الله تعالى بذات وشخص المتوسَّل به.

كأن يقول المتوسِّل: اللهم إني أتوسل إليك بالنبي ﷺ، أو أتوسل إليك بفلان أن تقضي حاجتي، قاصدًا التوسل بذات ذلك المتوسَّل به.

وهذا مخالف لهدي الصحابة رضي الله عنهم، فالمشروع عند الصحابة

رضي الله عنهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: " فالتوسل إلى الله بالنبيين هو التوسل بالإيمان بهم وبطاعتهم كالصلاة والسلام عليهم ومحبتهم وموالاتهم أو بدعائهم وشفاعتهم. وأما نفس ذواتهم فليس فيها ما يقتضي حصول مطلوب العبد وإن كان لهم عند الله الجاه العظيم والمنزلة العالية بسبب إكرام الله لهم وإحسانه إليهم وفضله عليهم".

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بجاه النبي ﷺ، أو بجاه فلان أو حقه أو حرمته أو بركته، كأن يقول المتوسل: اللهم إني أتوسل إليك بجاه فلان عندك أو بحقه عليك، أو بحرمته، أو بركته أن تقضي حاجتي.

وهذا الفعل بدعة ووسيلة من وسائل الشرك؛ لأن الدعاء عبادة وكيفيته من الأمور التوقيفية ولم يثبت عن نبينا ﷺ ما يدل على شرعيةِ أو إباحةِ التوسل بحقِّ أو جاهِ أحدٍ من خلقه.

وهذا الوجه من التوسل يقضي أنَّ المتوسل به من الأنبياء والصالحين لهم جاه عند الله، وهذا صحيح؛ فإنَّ هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة تقضي أنْ يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم إذا شفعوا بعد إذنه لقوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولكن هذا الجاه والحرمة سبب أجنبي عن المتوسل ولا علاقة بينه وبين إجابة الدعاء، بل هذا من الاعتداء في الدعاء.

وهذا الجاه والحرمة ينفع المتوسل إذا دعوا له وشفعوا فيه، فأما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعة، لم يكن سؤاله بجاههم نافعًا له؛ لأن الله

لم يجعله سببًا لإجابة الدعاء.

النوع الثالث: الإقسام على الله بالمتوسَّلِ به.

كأن يقول: اللهم أقسم عليك بفلان أنْ تقضي لي حاجتي.

وهذا لا يجوز لأنَّ الأصل في القسم والحلف أنْ يكون بالله تعالى، لحديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "مَن حلَفَ بغيرِ الله فقد أشركَ" رواه أبو داود، فدلَّ الحديث على أنه لا يجوز القسم بمخلوق على مخلوق؛ فكيف يجوز الحلف بالمخلوقات على الخالق الذي هو أجلُّ وأعظم من أنْ يقسم عليه بمخلوقاته، بل هو الذي يقسم به على مخلوقاته سبحانه وتعالى.

وهذه الشبهة التي أوردها المؤلف رحمه الله هي من أنواع التوسل الممنوع، فالمشبِّه يدَّعي أنَّ النبي ﷺ، أعطي الشفاعة فهو يسأله مما أعطاه الله تعالى وهذا ليس بشرك.

والجواب عن هذه الشبهة من وجهين:

الأول: أنْ يقال: الشفاعة المثبتة التي ستقع في الآخرة لا تقع إلا بعد الإذن من الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالى، كما قال الله سبحانه: (قل لله الشفاعة جميعًا)، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم مَنْ يشاء مِنْ عباده أذنَ لمن أراد أنْ يكرمه مِنْ عباده أنْ يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن، فإذا تبين لك: أن الشفاعة كلَّها لله، فأطلبها منه وقل: اللهم لا تحرمني

شفاعته، اللهم شفِّعه فِي، وأمثال هذا من المعاني الدالة على طلب الشفاعة من الله تعالى، وهذا هو غاية التوحيد، فالخير كله بيد الله تعالى، فليُسأل وحده دون مَنْ سواه.

فاحذر أيها المشبِّهُ من التوسل بالموتى طلبًا لشفاعتهم، فإنَّ الله تعالى الذي أعطى نبيه ﷺ الشفاعة هو الذي نهاك عن صرف الدعاء لغيره، فلا تطلب الشفاعة من الموتى، وقد قال سبحانه: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً) [الجن:١٨]، أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فيدخل في ذلك المنع من دعوة غير الله وطلب الشفاعة من الموتى، وتقدَّم ذكر ما يدل على أنَّ هذا العمل هو صنيع المشركين الذين كانوا يتعلقون بآلهتهم لأجل الشفاعة.

وحقيقة الأمر: أنَّ هذا المشرك المشبِّه ليس يريد من رسول الله ﷺ أن يشفع له، ولو كان يريد ذلك لقال " اللهم شفِّع فيَّ نبيك محمدًا رسول الله ﷺ" ولكنه يدعو الرسول ﷺ مباشرة، ودعاء غير الله شرك أكبر مخرج من الملة، فمن كان حريصًا على نيل شفاعة النبي ﷺ فليتجنب الشرك بأنواعه، فإنَّ من أعظم الأسباب التي تُنال بها الشفاعة الموت على التوحيد، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال لا إله إلا الله خالصا من قلبه» رواه البخاري.

الثاني: أنْ يقال للمشبِّه: الشفاعة ليست خاصَّة بالنبي ﷺ بل يشفع غير النبي ﷺ، ومن ذلك: الملائكة والنبيون والمؤمنون، لحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الرؤية الطويل، وفيه: " فيقول الله عز

وجل: شَفَعَت الملائكة، وشَفَع النبيُّون، وشَفَع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيَقبِض قبضةً من النار، فيُخرِج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حُمَمًا، فيُلقِيهم في نهرٍ في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيَخرُجون كما تخرج الحبَّة في حَمِيل السيل" رواه البخاري ومسلم.

ويشفع الشهداء، لحديث أبي الدَرداء ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: " يَشفعُ الشهيدُ في سبعينَ من أهلِ بيتهِ" رواه أبو داود.

ويشفع أولاد المؤمنين، لحديث أبي سعيد ﷺ أنَّ النساء قلن للنبي ﷺ: اجعل لنا يومًا فوعظهن، وقال: «أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد، كانوا حجابًا من النار»، قالت امرأة: واثنان؟ قال: «واثنان» رواه البخاري ومسلم.

فإذا أقرَّ أنَّ الله تعالى أعطى الشفاعة لغير نبينا محمد ﷺ، فإنه يُلزَمُ بلازمين:

الأول: إما أنْ يدَّعي طلب الشفاعة من غير النبي ﷺ فيذهب للمقبورين من الشهداء والصغار الذين ماتوا قبل البلوغ فيسألهم مما أعطاهم الله تعالى، ويقول لهم: اشفعوا لي عند الله، وهذا يكذبه الواقع.

والثاني: أنْ يقول بل أطلب الشفاعة منهم، فيُقال له: بفعلك هذا تكون قد وقعت في عبادة الصالحين، وشابهت كفار قريش الذين تعلقوا بالصالحين لأجل صلاحهم وقربهم من الله تعالى ليشفعوا لهم، وهذا عين الشرك، وقد نُهوا عن الوقوع فيه، كما قال الله تعالى: (وَلَا

يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا)، وقال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ).

وإن لم يلتزم بذلك فهذا هو عين التناقض، وبذلك تبطل شبهته.

فيقال له إن كنت تطمع في شفاعة النبي ﷺ فاستقم على التوحيد، وقل: اللهم شفِّع فيَّ نبيك، ولا توجه الخطاب للنبي ﷺ ، وهذا أحد أنواع التوسل المشروع.

ومن المهم جدًا أن يعرف المسلم التوسل المشروع، وأنواعه حتى لا يقع في التوسل الممنوع الذي وقع فيه أهل الشرك.

فالتوسل المشروع: كلُّ توسل جاءت به الشريعة، وبيَّنه النبي ﷺ أو حثَّ عليه، وفعله الصحابة رضي الله عنهم.

والتوسل المشروع ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته.

ومن الأمثلة على التوسل إلى الله تعالى باسم من أسمائه أن تقول: ياغفور اغفر لي، يا رحمن ارحمني، يا تواب تب عليَّ ونحو ذلك، قال الله عزَّ وجل: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: توسلوا بها في دعائه، وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيُدعى في كلِّ مطلوبٍ بما يناسب ذلك المطلوب.

ومن الأمثلة على التوسل إلى الله تعالى بصفة من صفاته قوله ﷺ: " اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة

خيرًا لي، وتوفني ما علمت الوفاة خيراً لي" رواه النسائي، فهذا توسل لله تعالى بصفة من صفاته وهي العلم والقدرة.

أمَّا دعاء الصفة، فكأن يقول الداعي: يا رحمة الله ارحميني، ويا مغفرة الله اغفري لي ونحو ذلك، وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أنَّه كفر باتفاق المسلمين؛ لأن الدعاء عبادة والعبادة لا تصرف إلا لله سبحانه وتعالى؛ ولأنَّك إذا دعوتَ الصفة، جعلتها مستقلةً بائنةً عن الله عزَّ وجلَّ.

النوع الثاني: التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح.

ومثاله: ما حكاه الله تعالى عن أولي الألباب في دعائهم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فتوسلوا إلى ربهم بالإيمان الصحيح الصادق.

ومنه: توسل الثلاثة الذين أووا إلى غار فانحدرت صخرة من جبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم فدعى كلُّ واحد منهم الله وتوسل بعمل صالح فعله ابتغاء وجه الله، فانفرجت الصخرة وخرجوا يمشون وقصتهم في الصحيحين.

النوع الثالث: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح.

كأن يقول المسلم في ضيق شديد، أو تحل به مصيبة كبيرة، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله تبارك وتعالى، فيحبُّ أن يأخذ بسبب قوي إلى الله، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى، أو

الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعو له ربه، ليفرج عنه كربه، ويزيل عنه همه.

ومن الأدلة على هذا النوع ما حكاه الله تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام بقوله: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٩٧].

وكان الصحابة رضي الله عنهم يسألون الدعاء من النبي ﷺ، وذلك لعلمهم أنَّ دعائه عند ربه مستجاب، ومنه قول أبي هريرة رضي الله عنه: " كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليَّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أمَّ أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة» فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف، فَسَمِعَتْ أمي خشفَ قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلتْ ولبستْ درعها وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، قال: فرجعتُ إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أمَّ أبي هريرة، فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا، قال قلت: يا رسول الله ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب عبيدك هذا – يعني أبا هريرة – وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحبب إليهم المؤمنين» فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني" رواه مسلم.

ومنه توسل عمر بن الخطاب ﷺ بدعاء العباس ﷺ، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك ﷺ أنَّ عمر رضي الله ﷺ استسقى بالعباس ﷺ وقال: " اللهم إنَّا كنَّا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنَّا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا فيسقون".

فاستسقوا به كما كانوا يستسقون بالنبي ﷺ في حياته فهم يتوسلون بدعائه لهم فيدعو لهم ويدعون معه.

قال المؤلف رحمه الله:

فإنْ قال: أنا لا أشرك بالله شيئًا، حاشا وكلا، ولكنَّ الالتجاء إلى الصالحينَ ليس بشرك، فقل له: إذا كنت تقرُّ أنَّ الله حرَّم الشرك أعظم من تحريم الزنا، وتقرُّ أن الله لا يغفره، فما هذا الذي حرمه الله وذكر أنه لا يغفره، فإنه لا يدري.

فقل له: كيف تبرئ نفسك من الشرك وأنت لا تعرفه؟ أم كيف يحرم الله عليك هذا ويذكر أنه لا يغفره ولا تسأل عنه ولا تعرفُه ! أتظن أن الله يحرمه ولا يبينه لنا؟

الشرح:

إذا نفى المشبِّه عن نفسه الشرك فقال: إنَّ الالتجاء إلى الصالحين، ومنه صرف الدعاء والاستغاثة والرغبة والرجاء والتوكل لهم ليس بشركٍ، بحجة أنَّ النبيُّ ﷺ، أعطي الشفاعة وهم يسألونها مما أعطاه الله تعالى وهذا ليس بشرك.

فالشرك عنده: عبادة الأصنام، والسجود لها، واعتقاد الربوبية في غير الله تعالى.

فإذا ادَّعى هذا المشبِّه أنَّ صنيعه ليس بشرك فقل له:

إذا كنت تقرُّ أنَّ الله حرَّم الشرك أعظم من تحريم الزنا، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي فيه تفسير الشرك الأكبر في الشرع قال: سألت النبي ﷺ:" أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: " أن تجعل لله ندا وهو خلقك" رواه البخاري ومسلم.

وقل له: إذا كنتَ تقرُّ أنَّ الشرك الأكبر يُخرج من الملة، ولا يغفر الله لصاحبه إلا بالتوبة، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]، وكلُّ ذلك لا يجحده، فقل له: ما حقيقة هذا الشرك الذي حرَّمه الله وذكر أنه لا يغفره، فإنه لا يدري حقيقة الشرك، بل يحصره بنوعٍ من أنواعه، أو يفسِّره بالربوبية، فأجبه بما سبق بيانه.

ثم قل له: كيف تبرِّئُ نفسك من الشرك عندما قلتَ: (أنا لا أشرك بالله شيئًا، حاشا وكلا)، وأنت لا تعرف الشرك؟ فكيف يُحَرِّمُ اللهُ عليك هذا الشرك ويذكر أنه لا يغفره ولا تَسْأل عنه ولا تعرفُه! فالحكم على الشيء – ومنه الشرك– فرع عن تصوره فتصوَّر أولاً ثم احكم بالإثبات أو بالنفي، أتظن أن الله يحرِّمه ولا يبينه لنا؟ حاشا وكلا فقد وصفَ الله تعالى كتابه بقوله: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) [النحل: ٨٩].

فَأَمْرُ الشركِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ تَكَلَّمَ فِيهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى بطلانه أَمْ لَا؟ الثَّانِي بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَلَّمَ عَلَى الشرك بِأَلْفَاظٍ مُجْمَلَةٍ مُحْتَمِلَةٍ، فَمَا بَلَّغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، وَقَدْ شَهِدَ لَهُ خَيْرُ الْقُرُونِ بِالْبَلَاغِ، وَأَشْهَدَ اللَّهَ عَلَيْهِمْ فِي الْمَوْقِفِ الْأَعْظَمِ، فَمَنْ يَدَّعِي أَنَّهُ فِي أُصُولِ الدِّينِ لَمْ يُبَلِّغِ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، فَقَدِ افْتَرَى عَلَيْهِ ﷺ.

وقد ترك النبي ﷺ أمته على المحجة البيضاء كما قال النبي ﷺ: «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي

إلاهالك» رواه ابن ماجه وأحمد.

وهذا فيه إشارة إلى أنَّ من أسباب انتشار هذه الشبهة: بُعْدُ كثير ممن وقع في هذه الشبهة عن العلم الشرعي الصحيح، وعدم لزومهم مذهب السلف الصالح، واتباعهم الآراء والأهواء، فأَظْهَرَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ الْإِخْلَاصَ فِي صُوْرَةِ تَنَقُّصِ الصَّالِحِيْنَ وَالتَّقْصِيْرِ فِي حُقُوْقِهِمْ، فالمخلص عندهم يصمونه بتنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، وَأَظْهَرَ لَهُمُ الشِّرْكَ بِاللهِ فِي صُوْرَةِ مَحَبَّةِ الصَّالِحِيْنَ وَاتِّبَاعِهِمْ، فما يفعلونه عند قبور الصالحين من صرف العبادات لهم لا يعدُّونه من الشرك بالله، فهؤلاء يفسرون شهادة أن لَا إِلَه إِلَّا الله، بأنَّه: لا قادر على الاختراع إلا الله، فجعلوا حقيقة الشرك في شرك الربوبية فقط، فالشركُ في الألوهية لا يرونه شركًا، فهم لا يتعرضون لتوحيد الألوهية ويفسرونه بتوحيد الربوبية، فظنوا أنه هو المطلوب من العباد، وأنَّ معنى لا إله إلا الله: لا قادر على الاختراع إلا الله، وهذا يدلُّ على أنَّ هذا المشبِّه لايعرف حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك معرفة تفصيلية، فوقع في ما يقدح في توحيده، ومنه التعلق بالصالحين وصرف العبادة لهم بحجة أنَّ فعلهم ليس من الشرك الممنوع.

ومن أسباب وقوعهم في هذه الشبهة: تلبيس مَنْ ينتسب إلى العلم من دعاة الشرك على الجهلة والعوام، فهذه الشبهة تولَّى كبرها في زمن المؤلف رحمه الله داعية شرك يقال له: محمد بن عبد المجيد الفاسي، (ت: ١٢٢٧هـ)، فقد قال في كتابه: (الرد على بعض

المبتدعة من الطائفة الوهابية): " إنَّما كَفَرَ أهل الجاهلية بعبادة الأصنام ".

قال المؤلف رحمه الله:

فإن قال: الشرك عبادة الأصنام، ونحن لا نعبد الأصنام، فقل له: مامعنى عبادة الأصنام؟ أتظن أنهم كانوا يعتقدون أن تلك الأحجار والأخشاب تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها؟! فهذا يكذبه القرآن.

وإن قال: هو مَنْ قَصَدَ خشبة أو حجرًا أو بنية على قبر أو غيرِه يدعون ذلك ويذبحون له ويقولون إنه يقربنا إلى الله زلفى ويدفع الله عنا ببركته أو يعطينا ببركته.

فقل: صدقت، وهذا هو فعلكم عند الأحجارِ والأبنية التي على القبورِ وغيرِها، فهذا قد أقرَّ أنَّ فعلَهم هذا هو عبادة الأصنام، فهو المطلوب.

ويقال له أيضًا: قولك: الشرك عبادة الأصنامِ، هل مرادك أنَّ الشرك مخصوص بهذا، وأنَّ الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لا يدخل في ذلك، فهذا يرده ما ذكره الله في كتابه من كفرِ من تعلق على الملائكة أو عيسى أو الصالحين، فلا بدَّ أنْ يقرَّ أنَّ مَنْ أشرك في عبادة الله أحدًا من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآنِ، وهذا هو المطلوب.

وسِرُّ المسألة: أنه إذا قال: أنا لا أشرك بالله فقل له: وما الشرك بالله؟ فسِّره لي.

فإن قال: هو عبادة الأصنام، فقل: وما معنى عبادة الأصنام ؟ فسِّرها لي، إنْ قال: أنا لا أعبد إلا الله وحده، فقل: ما معنى عبادة الله وحده؟ فسِّرها لي، فإنْ فسَّرها بما بيَّنَه القرآن فهو المطلوب، وإن لم يعرفْه فكيف يدعي شيئًا وهو لا يعرفه.

وإنْ فسَّر ذلك بغير معناه بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان، وأنه الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه، وأنَّ عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرونها علينا، ويصيحون فيه كما صاح إخوانهم حيث قالوا: (أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إنَّ هذا لشيء عجاب).

الشرح:

إذا حصرَ المشبِّه الشرك في عبادة الأصنام، وادَّعى أنه لا يعبد الأصنام، وأنَّ الالتجاء إلى الصالحين، ومنه صرف الدعاء والاستغاثة والرغبة والرجاء والتوكل لهم ليس بشركٍ، فهذا دليل على جهله بحقيقة الشرك.

فقل له: ما معنى عبادة الأصنام؟ أتظن أنَّ كفار قريش كانوا يعتقدون أنَّ تلك الأحجار والأخشاب تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها؟! فهذا يكذبه القرآن، كما تقدَّم تقريرة في آيات كثيرة منها **قول الله تعالى**: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)، **وقوله سبحانه**: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)، **وقوله عزَّ وجلَّ**: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ).فاعتقادك أنَّ كفار قريش كانوا

يعتقدون أنَّ تلك الأحجار والأخشاب تخلق وترزق وتدبر أمر من دعاها ظنٌّ فاسد فبيّن لنا معنى عبادة الأصنام وما حقيقتها؟ **وإنْ أقرَّ وفهم معنى عبادة الأصنام فقال:** هو مَنْ قَصَدَ خشبةً أو حجرًا أو بنية على قبر أو غيرِه يدعون ذلك ويذبحون له ويقولون إنه يقربنا إلى الله زلفى ويدفع الله عنا ببركته أو يعطينا ببركته، **فقل:** صدقت، وهذا هو فعلكم عند الأحجارِ والأبِنية التي على القبورِ وغيرِها، فهذا قد أقرَّ أنَّ فعلَهم هذا هو عبادة الأصنام، فهو المطلوب.

وبذلك تصل إلى تقريره أنه لا فرق بين فعلكم وفعل كفار قريش فأنتم وهم تفعلون عند الأحجارِ والأبِنية التي على القبورِ وغيرِها قُربًا للموتى، وتزعمون أنكم ما توجهتم إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة، كما قال الله تعالى عنهم: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)، وقال تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى).

وهذا الجواب كافٍ في الرد على هذا الملبِّس وكشف شبهته.

ويقال له أيضًا وهو الجواب الثاني عن حصر المشبّه الشرك في عبادة الأصنام: قولك: الشرك عبادة الأصنامِ، هل مرادك أنَّ الشرك مخصوص بعبادة الأصنام والأشجار والأحجار ، وأنَّ الاعتماد على الصالحين ودعاءهم لا يدخل في ذلك، بل المقصود من التوجه للصالحين طلب القربة والشفاعة، فهذا يرده ما ذكره الله في كتابه من كفرِ من تعلق على الملائكة أو عيسى أو الصالحين، وسبق ذكر الأدلة الدالة على ذلك، فلا بدَّ أنْ يقرَّ

أنَّ مَنْ أشرك في عبادة الله أحدًا من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآنِ، سواء تعلَّق بالأصنام أو بالصالحين، أو غيرهم، فكلُّ من وقع في نوعٍ من أنواعه فهو مشرك سواءً أكان الشرك في الدعاء أو الشفاعة أو النية والإرادة والقصد أو الطاعة أو المحبة أو الخوف فهو مشرك فلا يجوز حصر الشرك في نوعٍ من أنواعه، وبهذا يتبين بطلان قول صاحب الشبهة وعدم معرفته بحقيقة الشرك الأكبر، وهذا هو المطلوب.

وسِرُّ المسألة: أنه إذا قال القبوريُّ للموحد الذي يجادله: أنا لا أشرك بالله، وقد قال ذلك بناء على ما سبق تقريره مِنْ أنَّ هؤلاء لا يعُدُّون صنيعهم شركًا، فالشرك عندهم متعلق بالربوبية لا الألوهية، فقل له: وما الشرك بالله؟ فسِّره لي، **فإن قال**: الشركُ عبادةُ الأصنام، ومقصوده بذلك تبرير فعله، وأنَّ ما يفعله عند قبور الصالحين ليس بشرك، فقل له: وما معنى عبادة الأصنام ؟ فسِّرها لي، فسيذكر لك أنَّ عبادتها اعتقاد النفع والضر بها، وأن تعلقهم بالصالحين لأجل القربة والشفاعة، فأجبه أنَّ تعلقهم بالأصنام هو أيضًا لطلب القربة والشفاعة، كما قال الله تعالى: (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)، وقول الله تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ)، وغيرها من النصوص الواردة في هذا الباب.

وإنْ قال: أنا لا أعبد إلا الله وحده، فقل: ما معنى عبادة الله وحده؟

فسِّرها لي، فإنْ فسَّرها بما بيَّنَه القرآن، وأنها تقتضي إفراد الله تعالى بالعبادة فهو المطلوب، وإن لم يعرفْ حقيقة العبادة فكيف يدعي شيئًا وهو لا يعرفه، وبهذا يتبيَّن أنَّ شبهة هؤلاء هي بعينها شبهة المشركين الأوائل، **وإنْ فسَّر الشرك بغير معناه** بينت له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان، وأنَّ هذا الشرك هو الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه، وأنَّ عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرونها علينا، ويصيحون فيه كما صاح إخوانهم في الشرك، فإنَّ النبي ﷺ لما قال لهم: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا" قالوا: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ)، أى: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده؟ إِنَّ هَذَا الذي جاء به لَشَيْءٌ عُجَابٌ، أي: يقضي منه العجب لبطلانه وفساده، ولو كان النبي ﷺ قد طلب منهم مجرد التلفظ بهذه الكلمة لما تعجبوا من هذا الطلب، إذ أنه لفظ مجرد عن معناه، ومشركو زماننا أقروا بها لفظًا وجحدوها معنىً، فتجد أحدهم يقولها ويأله غير الله بأنواع العبادة، بل يخلصون العبادة في الشدائد لغير الله، فهم أجهل من مشركي العرب.

قال المؤلف رحمه الله:

فإنْ قال: إنهم لم يكفروا بدعاءِ الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لما قالوا: الملائكةُ بنات الله، فإنا لم نقل: إنَّ عبدَ القادر ابن الله ولا غيره.

فالجواب: أنَّ نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل؛ قال تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ)[الإخلاص ١-٢].

والأحد: الذي لا نظير له، والصمد: المقصود في جميع الحوائجِ، فمن جحد هذا كفر، ولو لم يجحدْ آخر السورة.

وقال تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ)[المؤمنون : ٩١]، ففرَّق بين النوعين وجعل كلاً منهما كفرًا مستقلاً.

وقال تعالى: (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) [الأنعام: ١٠٠]، ففرَّق بين كفرين.

والدليل على هذا أيضًا: أنَّ الذين كفروا بدعاء اللات مع كونهِ رجلاً صالحًا لم يجعلوه ابن الله، والذين كفروا بعبادة الجنّ لم يجعلوهُم كذلك.

وكذلك أيضًا: العلماء في جميع المذاهب الأربعة، يذكرون في باب حكم المرتد: أنَّ المسلم إذا زعم أن لله ولدًا فهو مرتد، وإنْ أشرك باللهِ فهو مرتد، ويفرّقون بين النوعينِ وهذا في غاية الوضوح.

وإن قال: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) [يونس: ٦٢] فقل: هذا هو الحق، ولكن لا يُعبدون.

ونحن لم ننكر إلا عبادتهم مع الله، وإشراكهم معه، وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل

البدع والضلال، ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين ، وحق بين باطلين.

الشرح:

إذا قال قبوريٌّ يجادل عن دين المشركين: إنَّ المشركين لم يكفروا بدعاءِ الملائكة والأنبياء، وإنما كفروا لاعتقادهم أنَّ الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله هي ولدُ الله، ومنه قول المشركين: الملائكةُ بنات الله، ولم يكفروا بدعائهم غير الله تعالى، فالقبوريُّ يقول مبرِّرًا لشركه: إنَّا لم نقل: إنَّ عبدَ القادر الجيلاني ابن الله ولا غيرَه، فهذا المشبِّه يريد تقرير أنَّ سبب كفر المشركين هو قولهم: الملائكة بنات الله تعالى الله عن ما يقول الظالمون علوًا كبيرًا، وليس دعاء غير الله تعالى.

فالجواب أنْ تقول له : نحن لسنا ننكر أنَّ نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل؛ فمن نسبَ الولدَ لله تعالى فهو كافر كما قال الله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ)[الإخلاص ١-٢]، والأحد: الذي لا نظير له، أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

والصمد: المقصود في جميع الحوائجِ، فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم فمن جحد ما جاء في أوَّل سورة الإخلاص، وهو قوله (قل هو الله أحد – الله الصمد) فصرف العبادة لغير الله ومنه صرف العبادة

للصالحين والأولياء، فقد كفر، ولو لم يجحدْ آخر هذه السورةِ، وهو قوله تعالى: (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ – وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) فالجاحد لأول سورة الإخلاص الصارف العبادة للصالحين كالجاحد لآخرها الذي ينسب الولد لله تعالى؛ ولو لم ينسب الولد لله تعالى فالأمران من نواقض الإسلام، فهذه السورة العظيمة نفتْ جميع أنواع الشرك والكفر وقرَّرتْ جميع أصول التوحيد والتنزيه.

وأجبه أيضًا بقول الله تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ)[المؤمنون : ٩١]، ففرَّق بين النوعين، وهو اتِّخاذ الله الولد واتِّخاذ الآلهة وجعل كلاً منهما كفرًا مستقلاً، فالكفر ليس خاصًّاً بنوع واحد فقط.

وأجبه أيضًا بقول الله تعالى: (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم) [الأنعام: ١٠٠]، ففرَّق في هذه الآية بين الكفرين، فالمشركون بالله تعالى من قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء، يدعونهم، ويعبدونهم، من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم.

وكذلك خَرَقَ المشركون أي: ائتفكوا، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله، بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه؟! فعطفَ سبحانه بين النوعين، وجعل كلًا منهما كفرًا مستقلًا.

والدليل على هذا أيضًا: أنَّ الذين كفروا بدعاء اللات مع كونهِ رجلاً صالحًا

لم يجعلوه ابن الله، والذين كفروا بعبادة الجنّ لم يجعلوا الجن بناتٍ لله تعالى، ولا يُفهمُ من ذلك حصر الكفر بنوعٍ واحد فقط.

وكذلك أيضًا: العلماء في جميع المذاهب الأربعة، يذكرون في باب حكم المرتد النوعين فيكفِّرون من اعتقد الولد لله تعالى ويكفِّرون من وقع في أي ناقض من نواقض الإسلام وأعظمها الشرك بالله تعالى، فعندهم: أنَّ المسلم إذا زعم أن لله ولدًا فهو مرتد، وإنْ أشرك باللهِ فهو مرتد، ويفرّقون بين النوعينِ، ولا يريدون حصر الكفر في نوع من الأنواع وهذا في غاية الوضوح.

وإن احتجَّ المشرك على جواز عبادة الصالحين بقول الله تعالى: (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ) [يونس: ٦٢] **فقل له**: لا شكَّ أنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ فيما يستقبلونه مما أمامهم من المخاوف والأهوال، وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، هذا هو الحق، ولكنَّ أولياء الله لا يُعبدون، ونحن لم ننكر إلا عبادتهم مع الله، وإشراكهم معه، **وهذا فيه إشارة إلى سبب من الأسباب المُوقعة في الشرك وهو**: الغلو في الصالحين، بسبب تعظيمهم، ومحبتهم المزعومة، فصُرفت العبادات لهم من دون الله تعالى، يقولون: هذا الذي يُفعل عند قبورهم هو عين التوحيد، وهو من تعظيم الصالحين، ويقولون للجهال: أنتم لا تعتقدوا في هؤلاء الموتى أنهم يحيون،

ويميتون، وينفعون، أو يضرّون، وإنما اعتقدوا فيهم أنَّ لهم جاهًا عند الله ومنزلةً ومكانةً، وهذا ليس بشركٍ، فصوّروا لهم هذا الشرك الذي كان يسميه العلماءُ قديماً بـ: شرك الوسائط صوّروا لهم أن هذا هو عين التوحيد.

قال المؤلف رحمه الله: (وإلا فالواجب عليك حبهم واتباعهم والإقرار بكراماتهم ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلال، ودين الله وسط بين طرفين، وهدى بين ضلالتين ، وحق بين باطلين)، وكلامه فيه إشارة إلى وسطية أهل السنة في معاملة الصالحين.

فالناس في هذا الباب على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: أهل السنة والجماعة، فهم يرون موالاة الصالحين، كما قال الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]، ويرون محبتَهم، والثناء عليهم، ويذكرون محاسنَهم كما أخبر الله ﷻ عنهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر:١٠]، ويرون أنَّ الصالحين أولياء لله ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣].

ويثبتون كرامات الأولياء التي يجريها الله على أوليائه من خوارق العادات، كما جرى لأسيد بن حضير حين استمعت الملائكة إلى قراءته.

وأهل السُّنة لا يدَّعون العصمةَ للأولياء، كما تدَّعيه بعض الطوائف؛

بل عندهم قاعدة في هذا الأمر، وهي قول النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاء»، رواه ابن ماجه.

ولا يفضِّلون الأولياءَ على الأنبياء فكلٌ له منزلته.

القسم الثاني: أهل التقصير والتفريط، وهم أصناف:

منهم: بعض الطوائف الذين ينفون كرامات الأولياء كالجهمية.

وبعضُ فُسّاق الملَّة المنتسبين إلى أهل السنة، عندهم نوعُ تقصيرٍ تجاه العلماء، فلا يقومون بالواجب نحوهم، من احترامهم، وعدم الوقيعة في أعراضهم، وعدم السخرية بهم ونحوها من الحقوق الواجبة لهم.

القسم الثالث: أهل الغلو، ومنهم: الرافضة الذين يؤلِّهون عليًا رضي الله عنه، فالسبأية الأولى أظهروا غلوًا في عليٍّ رضي الله عنه وألّهوه، وهذا مِنَ الغلو في الصالحين.

ومنه: الغلو في أهل البيت، فبُنِيَتِ القبابُ على أضرحتهم وأكثر هذه القباب مزعومة، لا يُسلَّم بأن هذه الأماكن مَدْفنٌ للصالحين.

ومن صور الغلو في الصالحين: ما يفعله الصوفية الذين يفضِّلون الولي على النبي ﷺ، ويبنون القباب على القبور، وعلى الأضرحة.

فعلى هذا المشبِّه أنْ يدع الغلو في الصالحين، وأن لا يفسِّر النصوص الشرعية بما يتوافق وهواه، فإن هذه طريقة أهل الزيغ الذين يأخذون بالمتشابه ويفسرونه بما يريدون من الاحتمالات.

قال المؤلف رحمه الله:

فإذا عرفت أنَّ هذا الذي يسميه المشركون في زماننا (كبير الاعتقاد) هو الشرك الذي أُنزل فيه القرآن، وقاتل رسول الله ﷺ الناس عليه، فاعلم أنَّ شرك الأولين أخفُّ من شرك أهلِ زماننا بأمرين:

أحدهما: أن الأولين لا يشركون ولا يدعون الملائكة أو الأولياء أو الأوثان مع الله إلا في الرخاء، وأما في الشدة فيُخلصون لله الدعاء، كما قال تعالى: (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً) [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: (قل أرأيتم إن أتاكم عذابُ الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) [الأنعام ك ٣٩، ٤٠]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر : ٨]، وقوله: (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) [لقمان : ٣٢].

فمن فهِم هذه المسألة التي وضحها الله في كتابِه؛ وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله، ويدعون غيره في الرخاء، وأما في الضراء فلا يدعون إلا الله وحده لا شريكَ له، وينسون سادتهم، تبيَّن له الفرق بين شرك أهلِ زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهمًا جيدًا راسخًا، والله المستعان.

والأمر الثاني: أنَّ الأولين يدعون مع الله أناسًا مقربين عند الله؛ إما نبيًا وأما وليًا وإما ملائكةً، أو يدعون أشجارًا، أو أحجارًا مطيعةَ لله تعالى ليست بعاصية.

وأهل زماننَا يدعون مع الله أناسًا من أفسق الناس، والذين يدعونَهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا، والسرقة، وترك الصلاة، وغير ذلك، والذي يعتقد في الصالحِ، والذي لا يعصي – مثل الخشب والحجرِ – أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه وفساده ويشهد به.

الشرح:

تقدم بيان أنَّ التوحيد الذي جحده كفار قريش هو توحيد العبادة، وأنَّ من مظاهر الشرك الأكبر عندهم: وقوعهم في التعلق بالصالحين؛ لأجل القربة والشفاعة، وهو بعينه الشرك الذي وقع فيه المشركون في زمن المؤلف رحمه الله وهو الذي يسميه المشركون في زمن المؤلف: (الاعتقاد) أو: (كبير الاعتقاد)، أي: الاعتقاد في الصالحين والالتجاء إليهم.

فإذا تبين أنَّ تعلق كفار قريش بالصالحين لأجل القربة والشفاعة هو الشرك الأكبر الذي قاتلهم عليه رسول الله ﷺ – وأنه هو الذي الذي وقع فيه المشركون زم المؤلف – وإنْ سمَّوه بغير اسمه– فاعلم أنَّ شرك أهل مكة في زمن النبي ﷺ أخفُّ من شرك المشركين في زمن المصنف رحمه الله من جهتين:

الأولى: أنَّ المشركين في زمن المؤلف رحمه الله، أعظمُ وأشدُّ شركًا من

المتقدمين من وجه، فالمشركون المتقدِّمون فاقوا المتأخرين في الوقوع في شركيات ليست عند المتأخرين كإنكار بعثة النبي ﷺ، وإنكار البعث وغير ذلك، والمشركون المتأخرون فاقوا المتقدمين في لزوم الشرك في الرخاء والشدة فشركهم متواصل في كل حال، فتعلقهم في القبور ودعائهم لغير الله يقع منهم في السراء والضراء، كما هو مشاهد في هذا الزمان عند أضرحة من يسمونهم بالأولياء كضريح الحسين والسيدة زينب وعبدالقادر الجيلاني والسيد البدوي وغيرهم، كما هو مشاهد من تعظيم المشركين المتأخرين للقبور، وإكرامها بما نهى عنه الشارع من عبادتها: بدعائها، ورجائها، والالتجاء إليها، والتوكل عليها، والنذر لها، وكتْبِ الرقاع فيها، وخطاب الموتى بالحوائج: يا سيدي يا مولاي افعل بي كذا وكذا، وأخذ ترابها، والخِرق التي عليها تبركًا، وإيقاد السرج عليها، وتقبيلها، وتخليقها، وشد الرحال إليها، ويضاف إلى ذلك إلقاء الخرق على الأشجار ودعاؤها، والذبح والنذر لها، اقتداء بمن عَبَدَ اللات والعزى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وقد ذكر المؤلف بعض الأدلة الدالة على ذلك.

فالمشركون الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشركون في زمن ويخلصون في زمن، وهذا أخف ممن يشرك في جميع الأزمنة، واستدل على ذلك بأربع آيات، وهي قوله تعالى:(وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً) [الإسراء: ٦٧] وقال تعالى: (قل أرأيتم إن أتاكم عذابُ الله أو أتتكم

الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين * بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) [الأنعام ك ٣٩، ٤٠]، وقوله: (وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَاداً لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) [الزمر : ٨]، وقوله: (وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) [لقمان : ٣٢].

فمن فهِم هذه المسألة فهمًا راسخًا تبيَّن له الهدى واليقين وعَلِمَ الفرق بين شرك أهلِ زماننا وشرك الأولين، ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهمًا جيدًا راسخًا، والله المستعان، وهذا فيه إشارة إلى قلة من يفهم هذه المسألة فهمًا صحيحًا، وإلا لما وقعت المخالفات الشركية في زمن المؤلف.

الجهة الثانية: مما يدل على أنَّ شرك المتأخرين أعظم من شرك المتقدمين: أنَّ المشركين الأولين كانوا يعبدون أناسًا صالحين مقرَّبين إلى الله تعالى، أو يعبدون أحجارًا، أو أشجارًا مطيعة لله طاعة قدرية كونية، وأمَّا أهل زمان المصنف رحمه الله، فإنهم يدعون أناسًا فسَّاقًا، والذي يدعو الصالحين أو الجمادات التي لا تعصي بل هي مسبِّحة لله تعالى، أهون ممن يدعو الفسَّاق من دون الله تعالى.

وفي هذا قال الصنعاني رحمه الله: (وقد يعتقدون في بعض فَسقة الأحياء، وينادونه في الشِّدَّة والرَّخاء، وهو عاكفٌ على القبائح والفضائح، لا يحضر حيث أمرَ الله عبادَه المؤمنين بالحضور هناك، ولا يَحضر جمعة ولا جماعة، ولا يعود مريضًا ولا يشيّع جنازة، ولا

يكتسب حلالًا، ويضُمُّ إلى ذلك دعوى علم الغيب، ويجلب إليه إبليسُ جماعةً قد عَشَّشَ في قلوبهم وباض فيها وفرَّخ، يصدِّقون بهتانه، ويعظِّمون شأنه، ويَجعلون هذا ندًّا لربِّ العالمين ومِثلاً، فيا للعقول أين ذهبت؟ ويا للشرائع كيف جُهلتْ؟(إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ)).

قال المؤلف رحمه الله:

إذا تحقق أنَّ الذين قاتلَهم رسول الله ﷺ أصح عقولاً وأخف شركاً من هؤلاء، فاعلم أن لهؤلاء شبهةً يوردونَها على ما ذكرنا وهي من أعظمِ شُبهِهِم فأصغِ سمعك لجوابِها.

وهي أنهم يقولون: إنَّ الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، ويكذبون الرسول ﷺ وينكرون البعث، ويكذبون القرآن ويجعلونَه سحراً ، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ونصدق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلي ونصوم، فكيف تجعلونَنا مثل أولئك؟

فالجواب: أنَه لا خلاف بين العلماء كلِهم أن الرجلَ إذا صدّق رسول الله ﷺ في شيء، وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلامِ ، وكذلك إذا آمن ببعضِ القرآنِ وجحد بعضه؛ كمن أقر بالتوحيد، وجحد وجوب الصلاة، أو أقر بالتوحيد والصلاة، وجحد الزكاة أو أقر بهذا كله وجحد الصومِ، أو أقرَّ بهذا كله وجحد الحج.

ولما لم ينقد أناس في زمن النبي ﷺ للحج ، أنزل الله في حقهم : (وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[آل عمران : ٩٧]، ومن أقر بهذا كله وجحد البعث كفر بالإجماع وحل دمه وماله؛ كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ

وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقّاً وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً) [النساء : ١٥٠-١٥١].

فإذا كان الله قد صرَّح في كتابه أنَّ مَنْ آمن ببعض وكفر ببعض فهو الكافر حقًا وأنه يستحق ما ذكر؛ زالت هذه الشبهة، وهذه هي التي ذكرها بعض أهلِ الأحساء في كتابه الذي أرسل إلينا.

ويقال أيضًا: إنْ كنتَ تقر أنَّ من صدَّق الرسول ﷺ في كلِ شيء وجحد وجوب الصلاة، أنه كافر حلال الدم بالإجماعِ، وكذلك إذا أقرَّ بكلِ شيء إلا البعث، وكذلك لو جحد وجوب صومِ رمضان، وصدَّق بذلك، لا يجحد هذا، ولا تختلف المذاهب فيه، وقد نطق به القرآن كما قدَّمنا.

فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج، فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمورِ كفر ، ولو عمل بكلِ ما جاء به الرسول، وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسلِ كلهم لا يكفر؟ سبحان الله! ما أعجب هذا الجهل.

ويقال أيضًا: هؤلاء أصحاب رسولِ الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة، وقد

أسلموا مع النبي ﷺ، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويؤذِّنون، ويصلُّون.

فإن قال: إنهم يقولون: إنَّ مسيلمة نبي.

فقل: هذا هو المطلوب، إذا كان من رفع رجلاً إلى رتبة النبيِ ﷺ كفر، وحلَّ ماله ودمه، ولم تنفعه الشهادتان، ولا الصلاة، فكيف بمن رفع شمسان أو يوسف، أو صحابيًا، أو نبيًا إلى مرتبة جبارِ السموات والأرضِ؟ سبحان الله ما أعظم شأنَه! كذلكِ يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون.

ويقال أيضًا: الذين حرَّقهم عليُّ بن أبي طالب–رضي الله عنه– بالنار، كلهم يدَّعون الإسلام، وهم من أصحاب عليٍّ –رضي الله عنه–، وتعلموا العلم من الصحابة، ولكن اعتقدوا في عليٍّ مثل الاعتقاد في يوسف وشمسان وأمثالهما، فكيف أجمع الصحابة على قتلهم وكفرِهم، أتظنون أن الصحابة يكفرون المسلمين؟ أم تظنون أنَّ الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضرُّ، والاعتقاد في عليِّ بن أبي طالب يُكفِّر؟

ويقال أيضًا: بنو عبيد القداحِ الذي ملكوا المغرب ومصر في زمانِ بني العباسِ، كلهم يشهدون بألسنتهم أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويدَّعون الإسلام ويصلون الجمعة والجماعة، فلما اظهروا مخالفة

الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه، أجمع العلماء على كفرِهم وقتالِهم، وأنَّ بلادهم بلاد حرب، وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدانِ المسلمين.

ويقال أيضًا: إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك وتكذيب الرسول والقرآن، وإنكار البعث، وغير ذلك، فما معنى الباب الذي ذكر العلماء في كل مذهب باب حكم المرتد، وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه؟.

ثم ذكروا أنواعاً كثيرة، كل نوع منها يُكفِّر ويحل دم الرجل وماله، حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبِه، أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب.

ويقال أيضًا: الذين قال الله فيهم : (يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ)[التوبة : ٧٤] أما سمعت الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن النبي ﷺ يجاهدون معه، ويصلون معه، ويزكون، ويحجون، ويوحدون.

وكذلك الذين قال الله عنهم: (قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ)[التوبة : ٦٥- ٦٦] فهؤلاء الذين صرَّح الله أنهم كفروا بعدَ إيمانهم وهم مع رسولِ الله ﷺ في غزوة

تبوك، قالوا كلمةً ذكروا أنهم قالوا على وجه المزحِ.

فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم : تكفرون من المسلمين أناسًا يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلُّون، ويصومون، ثم تأمَّل جوابها؛ فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق.

ومن الدليلِ على ذلكَ أيضاً: ما حكى الله عن بني إِسرائيل مع إسلامِهم وعلمهم، وصلاحهم أنهم قالوا لموسى: (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) [الأعراف: ١٣٨]، وقول أناس من الصحابة : (" اجعل لنا ذات أنواطٍ " فحلف رسول الله ﷺ أن هذا مثل قولِ بني إِسرائيل:(اجعل لنا إلهاً) رواه الترمذي وأحمد.

ولكن للمشركين شبهة يدلون بها عند هذه القصة؛ وهي أنهم يقولون: إنَّ بني إسرائيل لم يكفروا بذلك، وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط لم يكفروا.

فالجواب أن نقول: إن بني إسرائيل لم يفعلوا، وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا ذلك، ولا خلاف أنَّ بني إسرائيل لو فعلوا ذلكَ لكفروا، وكذلك لا خلاف في أنَّ الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه، واتخذوا ذات أنواط بعد نهيِه لكفروا، وهذا هو المطلوب.

ولكن هذه القصة تفيد أنَّ المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من

الشرك وهو لا يدري عنها فتفيد التعلم والتحرز، ومعرفة أن قول الجاهل: التوحيد فهمناه، أنَّ هذا من أكبرِ الجهل ومكائد الشيطان.

وتفيد أيضًا: أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلامِ كفر، وهو لا يدري فنبَّه على ذلك فتاب من ساعته أنه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل، والذين سألوا رسول الله ﷺ، وتفيد أيضًا: أنه لو لم يكفر ، فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظاً شديداً، كما فعل رسول الله ﷺ.

الشرح:

خلاصة ما مضى: أنه إذا علمتَ أنَّ شرك المتأخرين أعظم من شرك المتقدمين، فاعلم أنَّ المتأخرين لهم شبهة عظيمة وهي قولهم: كيف تجعلوننا أشدَّ شركًا من المشركين الأوائل الذين قاتلهم النبي ﷺ مع وجود الفرق بيننا وبينهم، فالمشركون الأوائل لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، ويكذبون الرسول ﷺ وينكرون البعث، ويكذبون القرآن ويجعلونَه سحرًا ، ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ونصدق القرآن، ونؤمن بالبعث، ونصلي ونصوم، فكيف تجعلونَنا مثل أولئك؟.

وهذه الشبهة أوردها بعض أهل الأحساء، وكان من أشدِّهم مناوءة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب: محمد بن عبدالرحمن بن عفالق (ت١١٦٤هـ)، له رسالة وجهها إلى الإمام المجدد سمَّاها: (تهكُّمُ المقلدين في مدعي تجديد الدين).

ومن أعظم منظري الشرك في زمن المؤلف: محمد بن عبدالله بن فيروز

(ت ١٢١٦هـ)، وله رسالة سمَّاها: (الرسالة المرضيَّة في الردِّ على الوهابية).

ومضمون الجواب عن هذه الشبهة تقدَّم، لكن لِعظمِ هذه الشبهة أجاب عنها المؤلف رحمه الله من ثمانية أوجه مضمونها ما يلي:

الوجه الأول: أنَّه لا يلزم في الحكم على شخص بالخروج من الإسلام أنْ تجتمع فيه جميع نواقض الإسلام، بل إذا وجد في العبد ناقض واحد من النواقض، كجحود وجوب الزكاة أو الصوم أو الحج فإنه لا يكون من المسلمين، ولا يكتسب أحكام المسلمين، بل يعطى أحكام أهل الشرك والكفر، إن كان الناقض وجد معه ابتداء، والردة إن وجدت بعد دخوله الإسلام، فالنصوص الشرعية دلَّتْ على كفر من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض.

الوجه الثاني: إذا أقررت بما مضى، وأن المرء يكفر بجحود فرض واحد من الفرائض كالزكاة أو الصيام أو الحج، فكيف بمن جحد التوحيد فالقول بكفره أولى، فإن لم تقل بهذا فهو دليل على جهلك.

الوجه الثالث: أنَّ بني حنيفة الذين قاتلهم الصحابة رضي الله عنهم منهم مَنْ كانوا جاحدين لوجوب الزكاة، والجحود كُفر، ولذا لم ينتفعوا بإسلامهم زمن النبي ﷺ.

وينبغي أن يُعلَمْ أنَّ الذين قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه أربع طوائف:

الطائفة الأولى: مَنْ ارتدَّ وترك الإسلام بالكلية.

الطائفة الثانية: مَنْ آمن بمدعي النبوة كمسيلمة وطلحة وسجاح.

الطائفة الثالثة: مَنْ جحدَ وجوب الزكاة بعد وفاة النبي ﷺ.

فهذه الطوائف الثلاث اتفق الصحابة رضي الله عنهم على ردتهم وقتالهم.

الطائفة الرابعة: مَن أقرّواَ بالزكاة مع امتناعهم عن أدائها، فهؤلاء هم مَنْ ناظرَ عمر رضي الله عنه أبا بكرٍ في شأنهم، ثم اتفق الصحابة رضي الله عنهم بعدُ على قتالهم.

لكن هل قتال هذه الطائفة الرابعة دليل على كفرهم؟

الجواب: لا، فلو امتنعَ قومٌ عن أدائها مع اعتقادهم وجوبها، وكانت لهم قوة ومنعة فإنهم يقاتلون عليها حتي يعطوها لقوله ﷺ: (أمرت أنْ أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) متفق عليه.

فإنْ قال صاحب شبهة: إنَّ الصحابة قاتلوا مَنْ آمن بمدعي النبوة كمسيلمة وطلحة وسجاح.

فيُقال: جوابكم هذا هو المطلوب، فإذا كان مَنْ رفع رجلاً كمسيلمة إلى رتبة النبي ﷺ فقد كفر، وحلَّ ماله ودمه، ولم تنفعه الشهادتان، ولا الصلاة، فكيف إذا رفع مخلوقٌ رجلًا دون دون مرتبة النبي، وجعله في مرتبة الله تعالى فهو أولى بالحكم عليه بالكفر ، ومنه تعلق الناس برجلٍ يُدعى شمسان وقد كان يُعبَدُ من دون الله تعالى قريبًا من العارض، وله أولاد

يعُتقَد فيهم، أو اعتقد في يوسف، وقد كان على قبره وثن يُعتَقد فيه، ويظهر أنَّ قبره في الكويت، وقيل: في الأحساء، أو رفع صحابيًا، أو نبيًا إلى مرتبة جبارِ السموات والأرضِ؟ سبحان الله ما أعظم شأنَه! كذلكِ يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون، فلا يدخلها خير ولا تدرك الأشياء على حقيقتها بل ترى الحق باطلا والباطل حقا.

الوجه الرابع: أنَّ الفرْقَة الغالية من السبئية أَصْحَابَ عبد الله بن سبأ كانوا يدَّعون الإسلام، وقد قَالُوا لعَلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أَنْت أَنْت قَالَ: وَمن أَنا؟ قَالُوا: الْخَالِقُ البارئ، فاستتابهم فَلم يرجِعوا فَأوقد لَهُم نَارا ضخمة وَأَحْرَقَهُمْ وَقَالَ مرتجزًا

(لما رَأَيْت الْأَمر أمرا مُنْكرا ... أججت نارى ودعوت قنبرا).

فازدادوا بعدَه عتوا فِي ضلالتهم وَقَالُوا: الْآن علمنَا على الْحَقِيقَة أَنه الْإِلَه لِأَن النَّبِي ﷺقَالَ: (لَا يعذب بالنَّار إِلَّا رب النَّار) والحديث رواه البخاري.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في منهاج السنة: (وقتل هؤلاء واجب باتفاق المسلمين، لكن في جواز تحريقهم نزاع: فعلي رضي الله عنه رأى تحريقهم، وخالفه ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الفقهاء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أما أنا فلو كنت لم أحرقهم؛ لنهي النبي ﷺ أن يعذب بعذاب الله، ولضربت أعناقهم؛ لقول النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»).

فهؤلاء كانوا يدَّعون الإسلام ومع ذلك كفَّرهم الصحابة وأجمعوا على

قتالهم، بسبب جعلهم عليًّاً رضي الله عنه هو الربُّ، والذين تعلَّقوا في يوسف وشمسان صرفوا لهم من العبادة ما لا يُصرف إلا لله تعالى، فهل يُتَّهم الصحابة رضي الله عنهم بتكفير المسلمين؟ حاشا وكلا، بل كفَّروهم بسبب كفرهم الذي وقعوا فيه، أم يظن الجهلة في زمن المؤلف رحمه الله أنَّ الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضرُّ، والاعتقاد في عليِّ بن أبي طالب يُكفِّر؟، **وتاج**: رجل كان في الخرج نهج الناسُ فيه سبيَل الطواغيت، فانهالتْ عليه النذر، واعتقدوا فيه النفعَ والضررَ، وكان يدعى من دون الله تعالى وكانوا يذهبون للحج إليه أفواجًا، وينسجون حوله كثيرًا من الأساطير والخرافات، فباب الشرك واحد مع تعدد أنواعه.

الوجه الخامس: بنو عبيدٍ القدَّاح الذين يسمون أنفسهم بالفاطميين، وينتسبون إلى ولد علي ابن أبي طالب زورًا وكذبًا، كانوا يدَّعون الإسلام وهم في الحقيقة من المؤسسين لدعوة الباطنية، القائلين بألوهية علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وهم أكفر من اليهود والنصارى والمشركين، فهم يتظاهرون بالإسلام والتشيع لآل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله، ولا برسوله، ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين، فقصدهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق، فالصلوات الخمس: معرفة أسرارهم، والصيام: كتمان أسرارهم، والحج: زيارة شيوخهم، وهم يعينون أعداء الإسلام عليه، فظاهر مذهبهم الرفض،

وباطنه الكفر المحض.

فهؤلاء لم ينتفعوا من دعوى الإسلام بشيئ، وقد أجمع أهل العلم على تكفيرهم، فكذلك يُلحَقُ بهم من يدَّعي الإسلام ويعتقد في يوسف وشمسان وتاج وأضرابهم.

الوجه السادس: أنَّ نواقضَ توحيد الألوهية وهي الخصال التي تحصل بها الردة عن دين الإسلام كثيرة، ذُكِرَتْ في كتب العقائد، وفي كتب الفقه في أبواب الردة وحكم المرتد، وقد أوصلها بعض العلماء إلى أربعمائة ناقض، فلا وجه لحصر الكفر الذي يخرج به المرء من الإسلام في بعض أنواعه، فالنواقض ذكر العلماءُ أنواعًا كثيرة منها، كل نوع منها يُكفِّر وَيُحِلُّ دمَ الرجل ومالَه، حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبِه، أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب، فالوقوع في ناقضٍ من نواقض الإسلام، ولو كان يسيرًا مخرجٌ من المِلَّة، ولو كان يقصد المزاح، ولم يكن جادًّا.

قال ابن قدامة رحمه الله في المغني: «ومن سبَّ الله تعالى، كفر، سواء كان مازحًا أو جادًّا، وكذلك: من استهزأ بالله تعالى، أو بآياته، أو برسله، أو كتبه، قال الله تعالى: (ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون – لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) [التوبة: ٥٥– ٦٦]».

ونقل غيرُ واحدٍ من أهل العلم الإجماعَ على كفر من يستهزئ بشيءٍ من آيات الله تعالى.

الوجه السابع: أنَّ المرء قد يخرج من الإسلام بسبب كلمة كفرية تلفَّظ بها مع كونه يقوم بالعبادات بأنواعها، فلا وجه لحصر الكفر في بعض صوره، وقد استشهد المؤلف رحمه الله على ذلك بمثالين:

الأول: أنَّ الله تعالى قال في المنافقين: (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ) أي: إذا قالوا قولًا كقول من قال منهم: (ليخرجن الأعزُّ منها الأذل) وكالكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في الاستهزاء بالدين، وبالرسول ﷺ، فإذا بلغهم أنَّ النبي ﷺ قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا.

فقال الله تعالى مكذِّبًا لهم: (وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ) فإسلامهم السابق – وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر –فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم، ويدخلهم بالكفر.

المثال الثاني: أنَّ الله تَعَالَى قال في المنافقين الذين خرجوا معه للقتال في غزوة تبوك وكانت في شهر رجب، في السنة التاسعة من الهجرة، لما قالوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ: أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ –يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ– فأنزل الله تعالى فيهم قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ — لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم﴾ [التَّوْبَة:٦٥– ٦٦]، فالكلمة التي قالوها كلمة كفرية، أظهروا بها نفاقهم الذي كانوا يخفونه.

قال المؤلف رحمه الله: (فتأمل هذه الشبهة وهي قولهم : تكفرون من المسلمين أناسًا يشهدون أن لا إله إلا الله ويصلُّون، ويصومون، ثم تأمَّل

جوابها؛ فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق)، التأمل هو: تدبر الشيء، وإعادة النظر فيه مرة بعد أخرى حتى تفهمه وتدركه، فهذه الشبهة تروج على الجهَّال، فيستعظمون تكفير من قام بالعبادات مع وجود ناقضٍ من نواقض الإسلام عنده، فتأمَّلْ جوابها حتى تدرك بطلانها.

قال الشيخ محمد بن بن عبدالعزيز بن مانع رحمه الله: (وذلك أنَّ شبهتهم من أقوى الشبه تلبيسًا وأشدها تدليسًا، فإنَّ مَنْ شهد أنْ لا إله إلا الله وصلَّى وصام، عَظُمَ إطلاق الكفر عليه عند الجاهل، ولم يعلم أنه هدمَ هذه الأعمال بشركه ودعوتِه غير الله، فلم تنفعه عبادته؛ لأنَّ مَنْ لم يأت بالتوحيد الخالص لم يعبد الله، فلهذا صار هذا الجواب من أنفع الأجوبة).

الوجه الثامن: أنَّ بعض المنتسبين للإسلام ظنوا أنَّ النطق بكلمة التوحيد يكفي في الدخول في الإسلام، وأنَّ هذه الكلمة تفيد ما يترتب عليها من أحكام دون التقييد بما دلَّتْ عليه من معنى، ولا شك أنَّ هذا جهل بمعنى كلمة التوحيد؛ فإنَّ التلفظ بها دون استكمال شروطها لا فائدة من ورائه، فمن وقع في ناقضٍ من نواقض الإسلام فإنه يكفر وفق الضوابط التي ذكرها أهل العلم في باب ضوابط التكفير.

ومن الأدلة على ذلك: ما حكى الله تعالى عن بني إسرائيل مع إسلامهِم وعلمهم، وصلاحهم أنهم قالوا لموسى عليه الصلاة والسلام: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَامُوسَى

اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) [الأعراف: ١٣٨].
فهؤلاء قَالُوا من جهلهم لنبيهم موسى عليه الصلاة والسلام بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم: (يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ) أي: اشرع لنا أن نتخذ أصناما آلهة كما اتخذها هؤلاء، فقَالَ لهم موسى عليه الصلاة والسلام: (إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)، وأيُّ جهل أعظم مِنْ جهل مَنْ جَهِلَ ربه وخالقه وأراد أن يسوِّي به غيره، ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟.
فهؤلاء سألوا الشرك الأكبر ولم يفعلوا، ولو اعتقدوا جوازه لكفروا، هذا مع صلاحهم، وكونهم من أصحاب موسى عليه الصلاة والسلام.
ومن الأدلة أيضًا: قول أناس من الصحابة رضي الله عنهم : (اجعل لنا ذات أنواطٍ) فحلف رسول الله ﷺ أن هذا مِثْلَ قولِ بني إسرائيل:(اجعل لنا إلهاً)، وهذا جاء من حديث أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا (ذَاتُ أَنْوَاطٍ)، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٣٨]، لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.
وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ الحق قد يخفى على بعض الصالحين،

فيحصل منهم التشبُّه بالمشركين في التعلُّق بالأشجار، فيقع في الشرك من غير أن يشعر، فهؤلاء سألوا ولم يفعلوا ولو فعلوا لكفروا لكن لما نُبِّهوا انتبهوا، فلا حاجة إلى تكفيرهم.

وقول بعض الجهلة: كيف تستدلون على تكفيرنا بالدليلين السابقين، مع أنَّ بني إسرائيل لم يكفروا بذلك، وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط لم يكفروا بذلك؟

والجواب أن يُقال: إنَّ بني إسرائيل لم يفعلوا الشرك الأكبر، وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا ذلك، ولا خلاف أنَّ بني إسرائيل لو فعلوا ذلكَ لكفروا، وكذلك لا خلاف في أنَّ الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه، واتخذوا ذات أنواط بعد نهيِه لكفروا، وهذا هو المطلوب، فما تفعلونه أيها المشركون كفر مستقل قد قمتم به، وهذا سبب تكفيركم، بخلاف هؤلاء فإنهم طلبوا الشرك بسبب جهلهم فلما بُيِّنَ لهم الحق لم يقعوا في الشرك بخلاف صنيعكم.

وهذه القصة تفيد: أنَّ المسلم بل العالم قد يقع في أنواع من الشرك وهو لا يدري عنها، فأقرب الناس من موسى طلبوا فعل الشرك، وأقرب الناس من نبينا محمد ﷺ، بسبب حداثة إسلامهم خفيت عليهم بعضُ صور الشرك، فتفيد هذه القصة: التعلُّمَ والتحرز من الوقوع في الشرك، ومعرفة أنَّ قول الجاهل: التوحيد فهمناه، أنَّ هذا من أكبرِ الجهل ومكائد الشيطان؛ فالمعرفة التفصيلية لمسائل الاعتقاد.

وصور الشرك التفصيلية ومنها المسائل العقدية النازلة المعاصرة قد يقع فيها

الخفاء عند من ينتسبُ للعلم، فكيف بغيره؟ فالحذر من الزهد في دراسة العقيدة السلفية، أو التزهيد في دراستها، فإنَّ هذا المسلك لا يُعلم إلا من طرائق أهل البدع، فالنبي ﷺ استمر في دعوته إلى التوحيد حتى قُبضتْ روحه.

وتفيد هذه القصة أيضًا: أن المسلم المجتهد إذا تكلم بكلامٍ كفر، وهو لا يدري فنبَّه على ذلك فتاب من ساعته أنه لا يكفر كما فعل بنو إسرائيل، وكما فعلَ الذين سألوا رسول الله ﷺ، وتفيد أيضًا: أنه لو لم يكفر، فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظًا شديدًا، كما فعل رسول الله ﷺ، وهذا من الحكمةحتى ينتبه الناس ويعلموا أنَّ الشرك يجب أن يُتحرز فيه أكثر؛ لخطورة المخالفة فيه.

قال المؤلف رحمه الله:

وللمشركين شبهة أخرى؛ يقولون: إنَّ النبي ﷺ أنكر على أسامةَ قتل من قال: لا إله إلا الله، وقال له: « أقتلته بعد ما قالَ لا إله إلا الله؟ »، وكذلك قولُه: « أمرت أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله»، وأحاديث أخرى في الكف عمن قالها، ومراد هؤلاء الجهلة: أنَّ مَنْ قالَها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل.

فيقال لهؤلاء المشركين الجهال: معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهو يقولون: لا إله إلا الله، وأنَّ أصحاب رسولِ الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويصلون، ويدَّعون الإسلام، وكذلك الذين حرقَّهم على ابن أبي طالب بالنارِ.

وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله، وأنَّ من جحد شيئًا من أركان الإسلام كفر وقتل، ولو قال لا إله إلا الله، فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئا من الفروعِ، وتنفعه إِذا جحد التوحيد الذي هو أساس دينِ الرسلِ ورأسه؟

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث، فأما حديث أسامة رضي الله عنه: فإنَه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعاه إلا خوفًا على دمه وماله.

والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك. وأنزل الله تعالى في ذلك : (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في

سبيل الله فتبينوا) [النساء: ٩٤] أي: فتثبوا، فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت، فإذا تبيَّن منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل، لقوله تعالى: (فتبينوا) ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى، وكذلك الأحاديث الأخر وأمثالها فمعناها ما ذكرنا: أنَّ مَنْ أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكفُّ عنه إلا أن يتبين منه ما يناقض ذلك.

والدليل على هذا أن رسول الله ﷺ الذي قال : (أقتلتَهُ بعدَ ما قال لا إله إلا الله ؟)، وهو الذي قال : « أمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله) هو الذي قال في الخوارجِ : « أينما لقيتُموهم فاقتُلوهُم » ، « لئن أدرَكْتُهم لأقتُلنهم قتلَ عادٍ» مع كونهم من أكثر الناس عبادة، وتهليلاً، حتى إنَّ الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم، وهم تعلموا العلم من الصحابة فلم تنفعهم لا إله إلا الله ولا كثرة العبادة، ولا ادعاء الإسلامِ لما ظَهر منهم مخالَفة الشريعة.

وكذلك ما ذكرنَا من قتالِ اليهود، وقتالِ الصحابة بني حنيفة، وكذلك أراد النبي ﷺ أن يغزو بني المطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) [الحجرات: ٦] وكان الرجل كاذبًا عليهم.

الشرح:

من شبهات المبرِّرين لشركهم: دعواهم أنَّ من قال لا إله إلا الله فهو مسلم، للنصوص الواردة في الكف عمن قالها، ومنها ما ذكره

المؤلف، ومراد هؤلاء الجهلة: أنَّ مَنْ قالَها لا يكفر ولا يقتل ولو فعل ما فعل من نواقض الإسلام.

والجواب عن هذه الشبهة أن يُقال:

كلمة التوحيد لا تنفع قائلها إلا إذا استكمل شروط قبولها، وسبق ذكر تلكم الشروط، فمجرد التلفظ بها لا ينفع قائلها، فالنبي ﷺ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون لا إله إلا اللَّه، بدليل قول الله تعالى: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا اللَّه)، والكلمة السواء هي كلمة التوحيد التي يقولونها، وبنو حنيفة منهم من كانوا يشهدون أن لا إله إلا اللَّه فقوتلوا وقُتلوا، والغالية أوائل الرافضة الذين حرَّقهم علي بن أبي طالب بالنار كانوا يقولون لا إله إلا اللَّه وقتلوا، وما تعتقدونه أنتم مِنْ أنَّ مَنْ أنكر البعث كفر وقُتل، دليل على تناقضكم، وأنَّ الكفر ليس خاصًا بفعل ناقضٍ فقط، وأنتم أيضًا تُقرُّون أنَّ من جحد شيئًا من أركان الإسلام كفرَ وقُتل، ولو قال لا إله إلا الله، فكيف لا تنفعه كلمة التوحيد إذا جحد شيئا من الفروعِ وهي الصلاة والزكاة والصيام والحج، وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أساس دينِ الرسلِ ورأسه؟ وكل هذا من البراهين الدالة على جهل هؤلاء وعدم فهمهم للنصوص السابقة.

وأما حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، فلا حجة لهم فيه على أنَّ مجرد النطق بكلمة التوحيد يكفي في الحكم على المرء بالإسلام، فأسامة رضي الله عنه إنما قتل الرجل وهو من الحرقات من جهينة متأوّلاً،

وظانًا أنَّ النطق بالشهادة عند معاينة القتل لا تنفع، كما لا تنفع عند حضور الموت، ولم يعلم بَعْدُ حكمَ النبي ﷺ فيه، ألا تراه كيف قال: إنما قالها متعوّذًا، فحكمه حكم الخاطئ، فمن قالها يجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف كلمة التوحيد، وفي قصة أسامة رضي الله عنه دليل على وجوب التثبت كما قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا)، فالأمور المشكلة غير الواضحة يحتاج الإنسان فيها إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟ ومنها هذه المسألة.

ومن الشواهد التي ذكرها المؤلف رحمه الله على أنَّ بعض الناس كانوا يقولون لا إله إلا الله ومع ذلك لم ينتفعوا بقولها: الخوارج الذين قالوا بإكفار علي بن أبي طالب رضي الله عنه وعثمان بن عفان رضي الله عنه، وكفَّروا المسلمين بالكبيرة، ومنهم مَنْ كفَّر بالصغائر، كانوا يقولون لاإله إلا اللَّه، ومع ذلك وردتْ عدَّة نصوص في الحث على قتلهم، ومن يقوم بذلك هو السلطان أو من ينيبه، ومن تلكم النصوص: ما جاء في حديث عليٍّ رضي الله عنه وفيه قال: سمعت رسول الله ﷺ ، يقول: «يأتي في آخر الزمان قوم، حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنَّ قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة» رواه البخاري ومسلم.

والخوارج حصل خلاف بين أهل العلم في تكفيرهم وعدم ذلك، فممن قال بتكفيرهم: أبو سعيد الخدري ﷺ، كما نسبه إليه الحافظ ابنُ حجر، وهو قولٌ في مذهب مالك والشافعي ورواية عن أحمد، وطائفة من أهل الحديث، ومال إلى تكفيرهم الحافظ ابن حجر رحمه الله، وذكرَ أنَّ القول بتكفيرهم هو مقتضى صنيع البخاري حيث قرنهم بالملحدين وأفرد عنهم المتأولين بترجمة، وعزى القول بتكفيرهم للقاضي أبي بكر بن العربي، ولتقي الدين السبكي، وبه قال المازري والقاضي عياض، ومال إلى تكفيرهم الشيخ ابن باز رحمه الله.

وذهب جمعٌ من أهل العلم إلى تبديعهم وتفسيقهم، وهو قول أكثر أهل الأصول من أهل السنة، وأكثر الفقهاء، وكثير من أهل الحديث، وهو قول أبي حنيفة وقول في مذهب مالك وذكر النووي أنَّ القول بعدم تكفير الخوارج هو مذهب الشافعي وجماهير أصحابه، وذكر أنه الصحيح، وهو المنصوص عن الإمام أحمد، وبه قال ابن المنذر، وابن عبدالبر وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم.

لأنَّ حكم الإسلام يجري عليهم لتلفظهم بالشهادتين ومواظبتهم على أركان الإسلام وإنما فسقوا بتكفيرهم المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد وجرهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفيهم وأموالهم والشهادة عليهم بالكفر والشرك؛ ولأنَّ مقالاتهم الكفرية كانت عن نوع تأويل، وهو مانع من موانع التكفير.

ويُروى التوقف في تكفيرهم عن الإمام أحمد رحمه الله وهو الغالب

عليه، فقد سئل عن الحرورية والمارقة: يكفرون؟ قال: «أعفني من هذا، وقل كما جاء فيهم الحديث» .

والأقرب والله أعلم التفصيل في الحكم عليهم؛ لأنَّ مقالاتهم متفاوته: فمنها مقالات كفرية: مثل قول طوائف من الْخَوَارِج: إِنَّ الصَّلَاة رَكْعَة بِالْغَدَاةِ وركعة بالْعَشي فَقَط.

ومثل مقالة الميمونية من العجاردة الذين أجازوا نكاح بعض المحارم كبنات البنين وبنات البنات وبنات بني الأخوة، ثم زادوا فأنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن لاشتمالها -فيما يزعمون- على ذكر العشق والحُبِّ، والقرآنُ فيه الجِدُّ، وكذا اليزيدية منهم، حيث زعموا أنَّ الله سيرسل رسولًا من العجم فينسخ بشريعته شريعة محمد ﷺ .

ومنها مقالات بدعية: كبدعة الخروج، وقول بعض طوائفهم بالتقية وغير ذلك.

فلا بدَّ من التفريق بين الحكم العام والحكم المتعلق بالمعيَّن؛ لأنَّ مَنْ يقع في المقالة الكفرية قد تكون عنده شبهة عارضة، لها وجه في التأويل تدفع.

لكن على القول بتكفيرهم، فإنهم لم ينتفعوا بالإتيان بكلمة التوحيد.

ومن الشواهد التي ذكرها المؤلف رحمه الله على أنَّ بعض الناس كانوا يقولون لا إله إلا الله ومع ذلك لم ينتفعوا بقولها:

أنَّ النبي ﷺ أراد أن يغزو بني المطلق لما أخبره رجل أنهم منعوا الزكاة حتى أنزل الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا) [الحجرات: ٦] وكان الرجل كاذبًا عليهم، ففيه أنَّ من ترك شعيرة من

شعائر الإسلام فإنه يُقاتل حتى يؤدِّها، وإن قال لا إله إلا الله، فإن تركها جحودًا قوتل لردته ولو أتى بكلمة التوحيد، وإنْ لم يجحدها قوتل ولو لم يكفَّر، فقول: لا إله إلا الله لايكفي في عصمة الدم والمال ما لم يجتنب المرء الوقوع في جميع نواقض الإسلام.

قال المؤلف رحمه الله:

ولهم شبهة أخرى: وهي ما ذكر النبي ﷺ أنَّ الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم، ثُمَّ بنوحٍ، ثم بإبراهيم، ثم بموسى، ثم بعيسى، فكلهم يعتذرون، حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ، قالوا : فهذا يدل على أن الاستغاثة بغيرِ الله ليست شركًا.

فالجواب أن نقول: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإن الاستغاثة بالمخلوقِ على ما يقدر عليه لا ننكرها ؛ كما قال تعالى في قصة موسى: (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) [القصص: ١٥] وكما يستغيث الإنسان بأصحابِه في الحرب، وغيرِه في أشياء يقدر عليها المخلوق، ونحن أنكرنا استغاثَة العبادة التي يفعلونها عند قُبورِ الأولياء أو في غيبتهم في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى.

إذا ثبت ذلك: فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة، يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائزٌ في الدنيا والآخرة؛ أن تأتي عند رجل صالح، حتى يجالسك، ويسمع كلامك، تقول له: ادع الله لي كما كان أصحاب رسولِ الله ﷺ يسألونَه في حياته، وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبرِه، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبرِه، فكيف بدعائه نفسه؟

الشرح:

هذه الشبهةُ مفادها: دعوى جواز الاستغاثة بالموتى من الصالحين،

كأن يهتف بأسمائهم مجردًا، مثل أنْ يقول: " يا محمد، يا علي، ياعبد القادر، يا أولياء الله، يا أهل البيت، ونحو ذلك.

أو يقول: "يا فلان، كن شفيعي إلى الله في قضاء حاجتي، أو ادع الله أن يقضيها" أو ما شابه ذلك.

أو يقول: " يا فلان اقض ديني، أو اشف مريضي، أو انصرني على عدوي " وغير ذلك.

قالوا: الاستغاثة بغير الله ليست شركًا للأدلة الدالة على جواز الاستغاثة بالأنبياء في الآخرة.

والجواب أن يُقال: سبحان من طبع على قلوب أعدائه، فإنَّ الاستغاثة بالمخلوقِ على ما يقدر عليه لا ننكرها، فالاستغاثة بالمخلوق تجوز إذا كان حيًا حاضرًا قادرًا، وقد دلَّ على ذلك أدلة منها: قول الله جل وعلا: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:٢]، وقول الله ﷻ في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥]،

وقد جرت العادة على أنَّ الناس يستغيث بعضهم ببعض في الحروب، وفي الأشياء التي يقدرون عليها، فإذا كانوا أحياء وحاضرين وقادرين، فلا مانع من الاستغاثة بهم.

وأمَّا الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلَّا الله ﷻ، كالاستغاثة بالأموات، أو الاستغاثة بالأحياء الحاضرين فيما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا من الشرك الأكبر.

إذا ثبت ذلك: فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة، يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، وهذا جائزٌ في الدنيا والآخرة؛ أن تأتي عند رجل صالح، حتى يجالسك، ويسمع كلامك، تقول له: ادع الله لي كما كان أصحاب رسولِ الله ﷺ يسألونَه في حياته، فكانوا يطلبون منه الدعاء لهم بالغيث كما في الصحيحين في قصة الأعرابي الذي قال: (يا رسولَ الله! هلكَ المالُ، وجاعَ العِيالُ فَادْعُ الله لنا أن يسقينا)، فرفع يديه يدعو: (اللهمَّ أَغثنا، اللهمَّ أَغثنا، اللهمَّ أَغثنا).

وتقدَّم أنَّ من أنواع التوسل المشروع: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الرجل الصالح، كأن يقول المسلم في ضيق شديد، أو تحل به مصيبة كبيرة، ويعلم من نفسه التفريط في جنب الله تبارك وتعالى، فيحبُّ أن يأخذ بسبب قوي إلى الله، فيذهب إلى رجل يعتقد فيه الصلاح والتقوى، أو الفضل والعلم بالكتاب والسنة، فيطلب منه أن يدعو له ربه، ليفرج عنه كربه، ويزيل عنه همه.

وأما بعد موت النبي ﷺ فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبرِه، بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبرِه، فكيف بدعائه نفسه؟ وَمما يدل على ذلك ما جاء عَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ رضي الله عنه؛ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو؛ فَنَهَاهُ، وَقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوْتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ؛

فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لَيَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ»، رَوَاهُ الحافظ الضياء فِي المختَارَةِ.

فنهى عليُّ بن الحسين الرجلَ عن المجيء إلى قبره ﷺ، لأنَّ ذلك من اتخاذه عيدًا فإذا كان هذا النهي في دعاء الله عند قبر النبي ﷺ، فغيرُه من القبور من باب أولى.

قال المؤلف رحمه الله:

ولهم شبهة أخرى: وهي قصة إبراهيم–عليه السلام– لما أُلقي في النارِ، اعترض له جبرائيل في الهواء فقال: ألك حاجةٌ؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا، قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبرائيل شركًا لم يعرضها على إبراهيم.
فالجواب: أنَّ هذا من جنس الشبهة الأولى، فإنَّ جبرائيل عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه ، فإنَه كما قال الله تعالى فيه: (شَدِيدُ الْقُوَى) [النجم : ٥]، فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولَها من الأرض، والجبال، ويلقيها في المشرقِ أو المغرب لفعل، ولو أمره الله أن يضع إبراهيم في مكانٍ بعيدٍ لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل، وهذا كرجلٍ غنيٍّ له مالٌ كثيرٌ يرى رجلاً محتاجاً فيعرض عليه أن يقرضه ، أو يهبه شيئًا يقضي به حاجته ، فيأبى ذلك المحتاجَ أن يأخذ ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لا منَّة فيه لأحدٍ ؛ فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون.

الشرح:

هذه الشبهةُ مفادها: دعوى جواز الاستغاثة بالموتى من الصالحين.

قالوا: الاستغاثة بغير الله ليست شركًا لقصة إبراهيم–عليه السلام– لما أُلقي في النارِ، اعترض له جبرائيل في الهواء فقال: ألك حاجةٌ؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا، قالوا: فلو كانت الاستغاثة بجبرائيل شركًا لم يعرضها على إبراهيم، وهذه القصة أوردها الطبري في تفسيره.

والجواب أن يُقال: تقدَّم أنَّ الاستغاثة بالمخلوق تجوز إذا كان حيًا

حاضرًا قادرًا، وجبريل عليه السلام – قادر ذلك بإذن الله تعالى، فهذه الشبهة جوابها كجواب الشبهة السابقة، وكلُّ هذا على فرض صحة التسليم بهذه القصة، فمن أهل العلم من ضعَّفها كشيخ الإسلام ابن تيمية والحافظ ابن كثير وغيرهما.

ومِثْلُ قصة إبراهيم وجبريل على فرض صحتها: مثل رجل غني له مال كثير يرى رجلاً محتاجا فيعرض عليه أنْ يقرضه أو أن يهب له شيئًا يقضي به حاجته، فهذا مثل جبريل، فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ ويصبر إلى أن يأتيه الله برزق لا منّةَ فيه لأحد، وهذا مثل إبراهيم عليه السلام، فكما أنَّ الفقير لو قبل من الغني لم يكن مشركًا فكذلك هذه القصة، فاستدلالهم بقصة إبراهيم مع جبريل استدلال في غير محل النِّزاع .

ففرقٌ بين الاستغاثة الشركية التي يفعلها المشركون مع الأموات، وبين الاستغاثة المذكورة في قصة إبراهيم، فمن سوَّى بينهما فقد سوى بين المتباينين من كلِّ وجه، وهذا دليل على جهلهم بحقيقة الشرك، ثم يزعمون أنَّ صنيعهم لا صلة له بالشرك.

قال المؤلف رحمه الله:

ولنختم الكتاب بذكرِ مسألة عظيمة مهمة تُفهم مما تقدم، ولكن نفرد الكلام لعظم شأنها، ولكثرة الغلط فيها، فنقول: لا خلاف أن التوحيد لا بدَّ أن يكون بالقلب، واللسان، والعمل ، فإن اختلَّ شيءٌ من هذا لم يكن الرجل مسلمًا، فإنْ عرف التوحيد، ولم يعمل به فهو كافر معاند، كفرعون وإبليس وأمثالهما، وهذا يغلط فيه كثير من الناسِ يقولون: هذا حقٌ ونحن نفهم هذا، ونشهد أنه الحق ولكنا لا نقدر أن نفعله، ولا يجوز عند أهلِ بلدنا إلا من وافَقَهم، أو غير ذلك من الأعذارِ، ولم يدرِ المسكين أن غالب أئمة الكفرِ، يعرفون الحق، ولم يتركوه إلا لشيءٍ من الأعذارِ كما قال تعالى: (اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً) [التوبة : ٩]، وغيرِ ذلك من الآيات، كقوله: (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة: ١٤٦]، فإن عمل بالتوحيد عملًا ظاهرًا وهو لا يفهمه، أو لا يعتقده بقلبِه فهو منافق، وهو شرٌّ من الكافرِ الخالصِ كما قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)[النساء: ١٤٥].

وهذه المسألة مسألة طويلة تُبيّن له إذا تأملتها في ألسنة الناسِ؛ ترى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقصِ دنياه أو جاهه، أو ملكه، وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا، ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله، أولاهما: قولُه تعالى: (لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) [التوبة : ٦٦].

فإذا تحققت أن بعض الصحابة الذين غزوا الروم مع الرسولِ ﷺ كفروا بسبب كلمةٍ قالوها على وجه المزحِ واللعب، تبين لك أنَّ الذي يتكلم بالكفرِ أو يعمل به خوفًا من نقصِ مال، أو جاه، أو مداراة لأحدٍ أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها.

والآية الثانية: قولُهُ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٦- ١٠٧].

فلم يعذرِ الله من هؤلاء إلا من أكره مع كونِ قلبه مطمئنًا بالإيمان، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه، سواء فعله خوفًا أو طمعًا، أو مداراة، أو مشحة بوطنه، أو أهله أو عشيرته، أو ماله، أو فعله على وجه المزاح، أو لغير ذلك من الأغراض إلا المكره فالآية تدل على هذا من جهتين:

الأولى قوله: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾، فلم يستثن الله إلا المكره، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العملِ أو الكلام، وأما عقيدة القلب فلا يكره عليها أحد.

والثانية: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾، فصرَّح أنَّ هذا الكفر والعذاب لم يكن بسبب الاعتقاد أو الجهلِ أو البغض للدين أو محبة الكفر، وإنما سببه أن له في ذلك حظًا من حظوظ الدنيا فآثره على الدينِ، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الشرح:

ختمَ المؤلف رحمه الله رسالته ببيان أنَّه لا يكفي مجرد التلفظ بكلمة التوحيد، فالتوحيد يكون:

بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ بِالْقُلُوبِ، وهذا عمل القلب.

والمراد بعمل القلب: اعتقاد القلب وهو تصديقه بالأخبار، وإذعانه وانقياده للأوامر.

وَيكون بشَهَادَةِ الْأَلْسِنَةِ، وهذا هو القول.

وَيكون بعَمَلِ الْجَوَارِحِ، وهذا هو العمل، فمن لم يجمع بين هذه الأمور الثلاثة فليس بمسلم.

فإبليس يعرف التوحيد ولم يعمل به، كما قال الله تعالى: (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ).

وفرعون يعرف التوحيد ولم يعمل به، كما قال الله تعالى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا).

فهؤلاء يعرفون التوحيد، ولم تنفعهم هذه المعرفة؛ لأنهم لم يعملوا به، وهذه طريقة أهل العناد، فمن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو معاند مثلُ هؤلاء.

ولا يصح الاحتجاج بفعل أهل البلد على تقرير الشرك، فبعض الناس يضل عن التوحيد بسبب تقليده لأهل بلده، فيبيع دينه خوفًا على دنياه، وهذا ليس بعذر معتبر، بل إنَّ غالب أئمة الكفرِ، يعرفون

الحق، ولم يتركوه إلا لشيءٍ من الأعذارِ، فمنهم من اختار الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والانقياد لآيات الله.

كما قال الله تعالى: (اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً) [التوبة : ٩].

وأهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن محمدًا ﷺ رسولُ الله، وأنَّ ما جاء به، حق وصدق، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لايشكون فيه ولا يمترون، ولكن فريقًا منهم – وهم أكثرهم – الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون، كما قال الله تعالى عنهم: (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) [البقرة: ١٤٦].

فمن عمل بالتوحيد عملًا ظاهرًا وهو لا يفهمه، أو لا يعتقده بقلبِه فهو منافق، وهو شرٌّ من الكافرِ الخالصِ ؛ لمخادعته وتدليسه وتبريره لباطله، كما قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)[النساء: ١٤٥].

ومن تأمل في ألسنة الناسِ؛ رأى من يعرف الحق ويترك العمل به لخوف نقصِ دنياه أو جاهه، أو ملكه، وترى من يعمل به ظاهرًا لا باطنًا، فكل هؤلاء لا ينتفعون بكلمة التوحيد بسبب عدم عملهم به، وبسبب جهلهم بحقيقة التوحيد والشرك.

فالتوحيد لا بدَّ أن يكون بالاعتقاد والقول والعمل، فالحذر الحذر من نقيضه وهو الشرك، فالمرء قد يقع فيه بسبب كلمةٍ قد يقولها على وجه المزحِ

واللعب، فكيف بالذي يتكلم بالكفرِ أو يعمل به غير مكرهٍ إكراهًا ملجئًا على العملِ أو الكلام، بل يقع في الشرك مع علمه وعدم جهله كأن يقع فيه خوفًا من نقصِ مال، أو جاه، أو مداراة لأحدٍ، أو طمعًا في دنيا، أو مداراة، أو مشحة بوطنه، أو أهله أو عشيرته، أو ماله، أو لغير ذلك من الأغراض فيبيع دينه بعرض من الدنيا،كما قال الله تعالى في الذين ارتدوا على أدبارهم طمعًا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه وزهدًا في خير الآخرة، فاختاروا الكفر على الإيمان: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ)، فآثروها على الدين؛ فمنعهم الله تعالى الهداية فلم يهدهم؛ لأنَّ الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم ويصل إلى قلوبهم، فشملتهم الغفلة وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

وبهذا تمَّ التعليق على هذه الرسالة المباركة.
والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وآله وصحبه أجمعين.